قصص

صلاح باديس

هذه أمورٌ تحدث

مكتبة نوميديا 161
Telegram @Numidia_Library

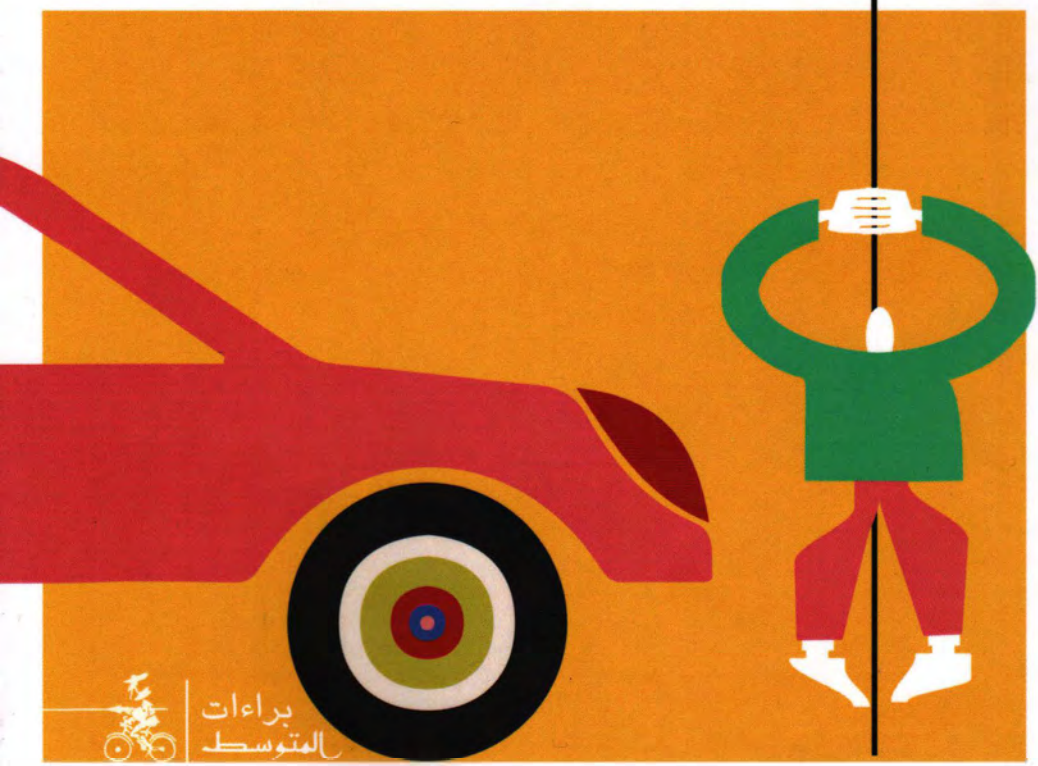

براءات المتوسط

هذه أمورٌ تحدث

حقوق النسخ والتأليف © ٢٠١٩ **منشورات المتوسط** - إيطاليا.

جميع الحقوق محفوظة. لا يُسمح بنسخ أو استعمال أو إعادة إصدار أي جزء من هذا الكتاب سواء ورقياً أو إلكترونياً أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات أو نقله بأي شكل من الأشكال، دون إذن خطي من الناشر. ويجوز استخدامه لأغراض تعليمية أو لإصدار كتب موجهَّة إلى ضعيفي البصر أو فاقديه شريطة إعلام الدار. تستثنى أيضاً الاقتباسات القصيرة المستخدمة في عرض الكتاب.

Hathihi Uomorun Tahduth *by* "Salah Badis"
Copyright © 2019 by **Almutawassit Books**.

المؤلف: صلاح باديس / عنوان الكتاب: هذه أمور تحدث
الطبعة الأولى: 2019.
تصميم الغلاف والإخراج الفني: الناصري

ISBN: 978-88-32201-18-5

منشورات المتوسط

ميلانو / إيطاليا / العنوان البريدي:
Alzaia Naviglio Pavese. 120/ 20142 Milano / Italia
العراق / بغداد / شارع المتنبي / محلة جديد حسن باشا / ص.ب 55204.
www.almutawassit.org / info@almutawassit.org

صلاح باديس

هذه أمورٌ تحدث

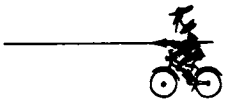

المتوسط

حاجة جديدة

القمر كان بدراً عندما حطّت الطائرة. ركبتُ الحافلة من المطار، ونزلتُ في ساحة أودان. سحبتُ الحقيبة خلفي في البداية، ثمّ انتبهتُ إلى تردّدُ صوت العجلات في الشوارع الخالية. حملتُها وسرتُ نحو شارع رضا حوحو. أكره الوصول إلى الجزائر في الليل.

لم نكن في أحسن أحوالنا. كُنتُ عائداً من دورة تكوينية في اسطنبول، دامت 15 يوماً، بينما كانت كهينة لا تزال تشارك في إضرابات الأطبّاء المُقيمين. تأزَّم الإضراب، ووجدَتْ نفسها - مثل الجميع - في نقطة الصفر بعد 13 سنة من الدراسة والعمل. فوق هذا كله، كُنّا سنُطرَد من غرفتنا بشارع رضا حوحو.

وضعتُ حقيبتي على الزليج الخشن والملوّن للغرفة، أغلَقتْ كهينة الباب، وفتحتُ أنا النافذة، لأُدخّن. كُنتُ أرى جزءاً من الشارع، يُغطّيه الظّلّ الطويل لجامع الرحمة.

"عندنا سمانة في يدنا باش نخرجو من الدار"، هكذا قالت لي وهي تجلس فوق السرير تلبس تي شيرت أسودَ واسعاً، بلون شَعْرها.

كُنا نسكنُ الغرفة الكبيرة، "الصالون"، بينما تشغل سمر، صديقتها وصاحبة البيت، الغرفة في آخر الممرّ، وهنالك البنت المصرية التي تُؤجِّر الغرفة المقابلة للمطبخ، بالإضافة لغرفة رابعة، نستعملها جميعاً كمساحة مشتركة. حتّى هنا كل شيء واضح.

خلال سفري، كانت كهينة تجلس مع المصرية، تتحدّثان وتشربان القهوة، عشيّة ربيعية عادية، لا شيء فيها مميّز، واحدة من تلك القعدات التي تُسمّيها سمر نساء الجزائر في مخدعهنّ. طرحت المصرية أسئلة حول أسباب الإضراب والمستوى المعيشي للأطبّاء ورواتبهم. كانت هي تعمل كمتطوّعة في منظّمة غير حكومية، وتسكن معنا منذ تسعة أشهر. ثمّ انفجرنا بالضحك عندما اكتشفَتا أنّ مُرتّب المصرية الرّمزيّ يُساوي مرتّب كهينة في القطاع العمومي، بعد سنوات من الدراسة والتكوين والعمل.

قالت إنّها تتفهّمُ إصرارهم على الإضراب، وعلى مطالب تحسين ظروف العمل، وإعادة النظر في سنوات الخدمة المَدَنية التي يقضيها الأطبّاء في أماكن شبه نائية، لا تتوفّر بها شروط العمل، خاصّة مع تطوّر خدمات الطِّبِّ في العالم. وتطرّقت المصرية لظروف المعيشة الصعبة والغالية في الجزائر، وقالت إنها تتصوّر أنّ شهرية كهينة تكفينا بالكاد لدفع الإيجار؛ ضحكت كهينة، وقالت إنّ الظروف ما تُشكرش صح، لكنْ، الحمد لله إنّه الإيجار هنا رخيص، خاصّة أنّنا نشغل غرفة فقط، وليس شقّة كاملة. اعترضت المصرية قائلة بأنّ كهينة تقول "رخيص" لأنّها لا تعرف الإيجار في بقية بلدان العالم، وأنّها تدفع إيجار غرفتها هنا بما يُعادل شقّة في مصر.

"أنا هنا فهمت بلّي كاين حاجة غالطة ف الحكاية"، تقول لي كهينة وهي تُراقب باب الغرفة.

اكتشفتْ كهينة أنّ سمر تجعل المصرية تدفع ثلاثة أضعاف سعر الإيجار العادي، وأنّها أقنعتْها منذ البداية أنّ هذا هو سِعر الغُرف هنا.

"تعرف، قعدنا ساكتات زوج دقايق".

انتظرت المصرية عودة سمر، وشعرتْ كهينة أنّها داسَتْ فوق لُغم. جاءت صاحبة الشّقّة، وسُرعان ما تعالَت الصرخات، حاولت كهينة التّدخّل، فطلبت منها سمر أن تبقى بعيدة، وأنّها ستتكلّم معها في وقت لاحق. صباح اليوم التالي، وجدت كهينة إيميلاً من سمر، تطلب فيه إخلاء الغرفة نهاية الشهر. أي بعد أسبوع.

في المساء، بعد عودة سمر، قالت لي كهينة إنّها حضَّرَتْ قائمة بالشّقق التي يُمكن أن نراها.كان علينا أن نخرج إلى الشارع حتّى نُناقش هذا كلّنا. خرجْنا إلى شارع فكتور هيغو المنحدر من شارع ديدوش مراد، وصعدناه ببطء. قرأتُ في القائمة بعض العناوين التي قد نجدُ فيها غرفة. وكلها كانت بالنسبة إلينا فُرصاً قبل الخيار الأخير: شقّة والدة كهينة.

فطيمة، والدة كهينة، سمعتْ بالمشكلة، وهذا، في حدّ ذاته، كان مشكلة. لا تتّفق المرأتان حول خيارات كهينة كلها في الحياة - وعلى رأسها صداقتها مع سمر وزواجها منّي؛ ومؤخّراً، مشاركتها في إضراب الأطبّاء المقيمين. مع تطوّر أحداث الإضراب، لم تعد كهينة تذهب لزيارتها تقريباً. ترى فطيمة، الموظّفة الخمسينية في صندوق التقاعد، أن مطالب الأطبّاء باطلة، وليست في محلّها. واتّهمت الأطبّاء بتحطيم ما تبقّى من الصّحّة العمومية، آخر المكاسب الشّعبيّة في هذه البلاد الملعونة. تتخاطبان بالفرنسية، وبصيغة الجمع، كأنّ كل واحدة منهما تمُثّل جيلها.

تعشَّيْنا في محلٍّ سوري، بعدها تبعتُها نحو زقاق، يتفرّع من شارع

باستور. أرادت كهينة أن تُريني الغسّالة العامّة، "أقرا واش مكتوب Laverieومشي Pressing"، كانت قد أخبرتْني أنّها وجدت غسّالة عامّة قريبة من الجامعة المركزية، لكني أخبرتُها بأنّها تخلط بينها وبين المصبغة، تلك التي نترك فيها ثيابنا الشّتويّة والأغطية الثقيلة، لنعود لأخذها، وبين الغسّالة العامّة التي نراها في الأفلام، والتي تُستعمَل لغسل ثياب كل يوم دون وسيط. لكنّها كانت هُناك فِعلاً، غسّالة عامّة، وليست مصبغة كما قُلتُ.

"كاين وحدة أخرى ولا هذي برك؟"

"شكّيت هذي برك، عُمري ما شُفت لافري هنا"، أجابتْني ونحن نقفُ على الرصيف المُقابل نُراقب زبونَيْن، ينحنيان على الغسّالات لإخراج الثياب.

في طريق العودة، وعبر الشوارع المظلمة، بقيْنا صامتَيْن. تُمسكني كهينة من ذراعي، وتمشي ملتصقة بي في هدوء، كانت عيّانة، وبدا ذلك ظاهراً على وجهها. شعرتُ أننا نُفكّر في الشيء نفسه. في الناس من حولنا، كيف يقومون بالأمور بطريقة مختلفة. لا يُخاطرون بكل شيء. خاصّة في الزواج. وعندما وصلْنا إلى رضا حوحو، تردّدْنا قليلاً قبل أن نخطوَ فوق الظّلّ المُشوِّه للكنيسة، وهو يزحف على الأسفلت والعمارة.

***

كُنّا نخرج إذاً. لم يكُن هنالك شيء نفعله في الشّقّة، عملية البحث عن غرفة لم تأتِ بنتيجة. فطيمة عرفتْ بالأمر، اتّصلتْ بنا، لتعرض إيواءَنا بعد المصيبة، أجابتْها زوجتي بأننا سنجد مكاناً. لم يكُن هذا صحيحاً. حاولتُ أن أُهدِّئها، ثمّ قُلتُ لها ذلك المَثَل الذي تكرهه، كي أجعلها تضحك: "اللّي داه البحر تجيبو الموجة". لكنّها تكدَّرت أكثر.

عدا هذا، كُنّا نجلسُ مع المصرية في الغرفة المشتركة. تبدأ هي في الاعتذار، تتحرّك بعصبية، كأنّها سكرتيرة شركة وطنية في السِّتِّينيَّات، بنظّارتها الكبيرة، وشَعْرها القصير، في حين تُشير كهينة - للمرّة الألف - إلى ستائر الغرفة وهي تقول متحسّرة على الصداقة الكذّابة:

"أنا اللّي علّقتهم هذو نهار جيت سكنت، يشفاو عليّا مليح". تنقبض ملامح المصرية، بينما تهتزُّ الستائر بفعل الهواء، مؤكّدةً كلام زوجتي.

كان الظلام قد حلّ. خرجْنا. أخذْنا كيس الثياب المُوَسّخة التي عُدتُ بها من السفر، وقصدْنا الغسّالة العامّة. لم نجِد سوى زبون واحد في المحلّ، أفرغْنا محتوى الكيس في جوف إحدّى الغسّالات، ثمّ أضافت كهينة مسحوق الغسيل والنقود، وضغطت زر ON. راقبْنا بداية العملية قليلاً، ثمّ جلسْنا مُتجاورَيْن. كان المحلُّ صغيراً فعلاً، لا يُشبه المغاسل العامّة الأمريكية الطويلة بإضاءتها البيضاء المريضة.

بقينا نُراقب الرغوة وهي تتشكّل، تُغطّي ألوان الملابس، ثمّ تتلاشى، وكانت الغسّالة تدور بلا توقّف، ومع كل دورةٍ تكبرُ الرغوة أكثر، ثمّ تتلاشى. أخبرتني كهينة أنّها اتصلت بأمها مرّة ثانية. وقالت لها بطريقة غير مباشرة أنّنا قد نضطر للبقاء عندها بضعة أيام. لم تُناسبنا كل الشقق والغرف التي رأيناها. وقعْنا فيما كانت تخشاه، العودة إلى بيت الأُمّ مطرودةً هي وزوجها، وبمستقبل مهني غير مضمون، وبراتبٍ شهريّ مُجمّد، وجبهة مُهدّدة بأن يضربها شرطي ما في الاحتجاجات.

كُنتُ قد نزلتُ معها في آخر احتجاج، أمام البريد المركزي. وعندما حاولْنا الخروج من الدرج النازِل وراء المبنى أمسكَنا رجال الشرطة مع آخرين، فرَّقوا الجميع على المركبات، تمسّكتْ كهينة بذراعي، ووجدتُ نفسي أشتم وأدفع في الشّرطيّ الذي كان يجرُّنا:

"أطلق ... أطلق ... نيكاااا ... نيك ... نننن ... أطلق نعدين باباك".

كان التدافع شديداً، وبقيتُ ملتصقاً بذراع الشّرطيّ الضخمة، حتّى أُخفِّف من حدّة أيّ ضربة قد تقع على رأسي، وفي الأخير نجحْنا في الصعود داخل مركبة واحدة، كُنّا آخر مَنْ يصعد، تلقَّفَنا مَنْ بالداخل، وأغلق الباب في وجوهنا، ولوهلة شعرتُ أن دوّامةً تبتلعُنا، كأن موجةً خدّاعة رمتْنا في القاع، وأطبَقت علينا. حلّ الصمت قبل أن تشتعل أضواء الهواتف.

كانت الشرطة تعتقل المحتّجين، وترميهم خارج المدينة، وجدْنا أنفسنا على بُعْد ثلاثين كيلومتراً من البريد المركزي، على حدود المنطقة الصّناعيّة للرويبة، لم نكُن وحدَنا طبعاً، لكننا كُنّا في ورطة. ظلّ الجميع يشتم ويكفرُ على رجال الشرطة وهم يبتعدون في سيّاراتهم، عادت كهينة نحوي بعدما صرخت وشتمت حتّى بُحَّ صوتها وهي تقول:

"هاو أدانا البحر، قول للموجة تجيبنا".

***

في اليوم الخامس، لم يبقَ لنا شيء نغسله. نزعْنا ملابسنا، تعرَّيْنا أنا وكهينة في الغرفة مثل ولدين صغيرين يتسابقان مَنْ يدخل البحر أوّلاً، رأيتُ خصرها النحيل، وابتسمتُ، رغم كل الأكل غير الصّحّيّ والقازوز والعجائن، يبقى خصرها مشدوداً بطريقة عجيبة، تقاطعتْ نظراتنا، فابتسمتُ لها، ورأيتُ ابتسامتها من تحت شَعْرها الطويل الأسود. وضعْنا الملابس في كيس، ولبسْنا أخرى نظيفة، صارت غُرفتنا تفوح برائحة مسحوق الغسيل "تايد". وعندما وصلْنا إلى المحلّ، بعد المغرب بقليل، لم نجِدْ سوى صاحب المغسلة. ابتسم لنا، وسألنا عن حالنا،

كُنا قد صرنا أولاد الدار بلغة التُّجَّار. تلك الليلة ضحكْنا في السرير قبل النوم، كانت ملابسنا نظيفة، ولكننا ذهبنا لغسلها، اكتشفْنا حيلةً جديدة، تجعلنا نغسل الملابس إلى ما لا نهاية. وخلال مراقبتنا للرغوة، قفزت كهينة فجأة من مكانها، وقالت لي:

"هذي هي الموجة!"

كانت تُشير إلى الغسّالة. قالت إنّها كشفت سرَّ الغسّالات، الرغوة الكثيفة داخلها هي موجة بحر تأتي من مكان بعيدٍ جدًّاً، من آلاف الكيلومترات خلف الغسّالات، ليس من الأبيض المتوسّط طبعاً، لأنّه كان في الاتّجاه المُعاكس، لا، بل بحر آخر، بحر الغسّالات. يأتي من بعيد، وينتهي هنا فيها، في النوافذ الصغيرة المُستديرة للغسّالات، التي لا نرى منها سوى الزَّبَد.

كُنّا ننتظر الموجة كل مساء.

"والموجة تجيب لنا حوايجنا"، أضافت مُبتسمة.

في اليوم التالي، لم يبقَ لنا شيء نغسله فِعلاً، حتّى ملابس يومنا كانت نظيفة. طلبْنا من المصرية ملابس موسّخة. تفاجأتْ، لكن كهينة شرحتْ لها أنّنا نُريد أن نساعد صديقاً فتح مغسلة عامّة ... حكَتْ لها قالِباً من هذا النوع. وبعد مَدٍّ وجَزْر، خرجْنا من الشّقّة بكيسٍ ملابس المصرية. في الطريق ضحكْنا ونحن نتخيّلُ هذا الصديق، قبل أن تتوقّف كهينة فجأة في الطريق، لتقول لي:

"علاش ما نفتحوش احنا لافري؟ الرّح، واحد ما خمّم فيها، ماكانش حاجة تربّح وأوريجينال قد هذي".

كانت على حقّ. عاصمة كاملة، لا يوجد فيها سوى "لافري" واحدة، البقية كلها مصبغات غير عملية، ولا تصلح لغسيل كل يوم. عندما وصلْنا إلى المغسلة، وبعد تبادل التّحيّة، بدأتُ أنا بوَضْع ملابس المصرية في الغسّالة، كانت كلّها ملابس غالية وشيفونيّة القُماش، أشياء رقيقة وصغيرة وغالية، لم تكُن هنالك ملابس داخلية.

تقرّبتْ كهينة من صاحب المحلّ، وبدأتْ تسأله عن عمله، وكيف يُمكن أن يفتح الواحد "لافري"، ثمّ طمأنَتْهُ مازحة بأنّنا لن نفتح في شارع قريب، ولن ننافسه. كان يتكلّم وهي تُسجِّل، وفي طريق العودة، كانت متحمّسة جدّاً حتّى إنّنا تبادلْنا قُبلةً طويلة في المدخل المُظلم للعمارة 17، شارع رضا حوحو. وعندما دخلْنا الغرفة، قالت لي بأنّ هذا هو مشروع العمر، وإنها تريد تجريب حاجة جديدة:

"الصحافة تروح تقوّد، والسبيطاريروح يقوّد بيه بالصّحّة العمومية تاعهم، نفتحو لافري ونديرو الدراهم ... حابّة نشوف حاجة جديدة".

"لازم لنا اسم بصّح ...".

"اسم؟ صح ...". ظلّت تدور في الغرفة حول الطاولة التي تراكمت عليها ثياب نظيفة كثيرة.

"نسمّوها الأمواج"، قلتُ لها.

"لالا، جياحة، لازم الأمواج هذي تكون سكيمي... من تحت لتحت".

"أوكي، هاتي تشوفي دُخّاني فوق الطابلة قُدّامك".

وما إن حملتُ كيس التبغ الذي كان فوق الطاولة، كيس جميل

اشتريتُهُ من اسطنبول، لونه أخضر مائي واسم الماركة مكتوب بخطٍّ عريض.

"هذا هو"، قلتُ "صبتها! نسمّوها البوسفور، لافري لو بوسفور"!

كُنّا قد نسينا موضوع البحث عن شقّة، وفي اليوم الأخير للمُهلة، تُوفيِّ والد سمر ببيته في شرق البلاد. المصرية هي مَنْ أعلمتْنا بالأمر في الصباح. سمر عرفتْ في نُصّ الليل، وخرجتْ مباشرة نحو المطار، ونحن نائمون. اجتمعْنا حول قهوة الصباح، وتناقشْنا في أمر إخلاء الغرفة، ووجدْنا أنّه من الأفضل انتظار عودة سمر. قرّرتُ مع كهينة أن نغسل ثياب سمر في ذلك اليوم، وكذلك فعلْنا، لم تكُن هنالك ثيابٌ كثيرة، لكننا وجدْنا كيلوطات غالية عريضة مثل ترمتها. بعد ذلك انقرضت الثياب الموسّخة كلها من الشّقّة. غسلْنا ما تقدّم وما تأخّر. كُنّا قد فقدْنا أسباب الذهاب كلها. نستيقظ في الصباح، على أمل أن يطول حِدادُ أهل سمر ليومٍ آخر، لم تكن كهينة تردّ على رسائل زملائها في الإضراب، ولا على مُكالمات والدتها. قصدْنا المغسلة دون ثياب، ودون أسئلة لصاحب المحلّ، كُنّا قد استنفدْنا الأسئلة والنصائح اللازمة كلها لإطلاق "مغسلة البوسفور" التي لن نفتتحها.

خرجْنا مع المغرب، على أمل إيجاد حُجّة ما، نجلس بها في المغسلة. ذهبْنا كالسائرِ في نومه. لم نكُن ننتظر أن تحمل لنا الأمواج ما أخذه البحر. كُنّا مجذوبَيْن بكثافة الرغوة وحركتها وتلاشيها وتشكُّلها من جديد، وذلك الصوت الرتيب والمكتوم للغسّالات القديمة. هذا كل شيء. حيّانا الرجل بحركة من رأسه. لم يطلبْ منّا شيئاً. تركَنا لحالنا. جلسْنا في

الإضاءة الخافتة. كان هنالك ثلاثة زبائن يغسلون ملابسهم. وضعتْ كهينة رأسها على كتفي، ونظرْنا إلى النوافذ المستديرة الصغيرة. تابعتُ حركة الرغوة البيضاء، ورأيتُ أمواجاً كثيرة تأتي نحونا وتملأ المحلّ. في الخارج، كان اللّيل يتقدّم هادئاً في الشوارع المُقفِرَة. لا أحد يحرس الليل في الجزائر. الليل هنا بالغٌ ويحرُس نفسه.

القمرُ دبّوسٌ يُثبِّتُ ورقةَ الليلِ

ساعات الفجر وما جاني النوم. لا أفهم لماذا لم تأتِ ماريا ولا مرّة في الليل لتُخبرني بالتفاصيل. أحاول انتظارها عندما تُطفَأ الأضواء، لكني أشعر بدوار، وأغيب. لا أحلم في نومي، لا أحلام ولا كوابيس، لا أرى شيئاً، أعرف فقط أني كُنتُ نائماً عندما أصحو وأنا أرفس وأصكّ بقَدَمِي في الفراش. أستيقظ صارخاً في الظلام، لكنْ، من دون صوت - عكس بابا - لا يخرج منّي شيء. يهتزُّ جسدي فقط، وأتخيّل وجهي الذي تتجعّد ملامحه بفم مفتوح على آخره، وعينَيْن مذعورَتَيْن. هذا كله في الظلام، لا أحد يراني، ربمّا أقطع حركة الأشباح الهادئة فقط. ثمّ يأتي الدوار مرّة أخرى، وأسقط مثل زهرة عبّاد شمس انكسرت ساقها.

***

بدأ هذا كله بسؤال قديم، عندما كُنتُ تلميذاً، قبل أن أعرف ماريا، وقبل أن يسافر بابا إلى أنقرة، وقبل أن يصير نومي بلا أحلام:

"واش تخدم يمّاك"؟

"حفّافة".

"واش يخدم باباك"؟

"ميّت".

وهنا دائماً يحلُّ صمتٌ مُزعج، تنظر الأستاذة نحوي مذعورة قبل أن تتمالك نفسها وتعتذر وتترحّم على الميّت، ثمّ تضرب برفقٍ فوق المكتب، ليستدير التلاميذ الذين جعلهم جوابي يلتفتون، فيما يبقى أصدقائي الذين يعرفون عائلتي يُغالبون ضحكاتهم وقد تعوّدوا أجوبتي.

غالباً، لا يأخذ الأمر وقتاً طويلاً حتّى تقرأ المُعلّمة ملفّي، وبعدها تُسلّمني ورقة استدعاء لأولياء أمري. أجلس أنا في رواق الإدارة، أراقب ماما وبابا بوجوه انسحب منها الدم، بينما تبقى المُعلّمة مُحتارة ومحرجة. بعد هذه الزيارات، تهبُّ عاصفة في بيتنا، لا تدوم طويلاً، يومان أو ثلاثة، ثمّ تستقرّ الأمور. لكنْ، في المدرسة، تتغيّر مُعاملة الأيّام الأولى، أنتقل من اليتيم إلى الكذّاب.

نعم، هذه حياتي. اسمي سامي وعُمري 21 سنة، وأعيش مع ماما التي كُتِب في ملفّي إنها مُحامية، وبابا الذي قيلَ إنه يعمل كرئيس قسم في شركة سوناطراك. عندي أيضاً سُلحفاة صغيرة، اسمها كارولين، لا ترِدُ في الملفّات، وترفض ماما الاعتراف بها ... ولستُ كذّاباً.

"أنتَ كذّاب".

هذه أكثر جملة سمعتُها من البنات عندما يعرفنَ عمري الحقيقي. أركب القطار كل يوم من محطّة دار البيضاء نحو الحرّاش، حيث أدرس في الليسي. طُرِدت من الليسي في دار البيضاء، لأنّ المُدير أمسك بي مع إيمان، المُراقبة الشّابّة، في مكتبها الصغير. فضيحة وطرد وصدمة كبيرة لإيمان، ما علينا. بين محطَّتَي دار البيضاء والحرّاش، هنالك محطَّتان، ينزل فيهما طَلَبَةُ الجامعات. لذلك أتخاطر مع نفسي، إذا ما كُنتُ - على الأقلّ - سأفتح حديثاً مع طالبات جامعيات في القطار.

غالباً ما أقوم بأكثر من مجرّد حديث، وفي الأيّام الجميلة - خاصّة في الربيع - أنجح في إقناعهنّ بالتّغيّب والخروج معي.

هكذا ضاع مستقبلي كما تُسمِّيه ماما.

لا أنزل أبداً في الحرّاش، بل أكمِلُ رحلتي في القطار حتّى محطّة الجزائر، ومن هناك أبدأ في المشي.

***

ذات مرّة نزلتُ من القطار في محطّة الجزائر، وخرجتُ من جهة البحر، وجدتُ أنهم قد نزعوا السور حول المَسمَكة على الرصيف الآخر، فاجتزتُ الطريق، وسرتُ نحو البحر، لأجد البحّارة قد عادوا من رحلة الصيد، وبدؤوا في تحضير غدائهم، دعَوني، فجلستُ إليهم أشاركهم الأكل. كان لون السماء مخيفاً، كأنها ستفرغ ماءها علينا في أيّ لحظة. لكنهم علّموني كيف أشوي السمك، فأكملتُ أنا التحضير بينما انشغلوا هُم بالغناء، كانوا يُغنّون يا عُشّاق الزّين لعمر الزّاهي، أخرجتُ هاتفي لآخذ صورة للنار والسمك، فوجدتُ رسالة تقول إنّ الزاهي مات في الصباح، وسيدفنونه بعد صلاة الظهر. خرجْنا مُسرعين إلى الطريق، وحاولْنا إيقاف طاكسي، لكن ملابس البحّارة القذرة جعلت كل الطاكسيات تهرب، فقرّرْنا أن نمشي. مشيْنا حتّى شاطئ كيتاني، ومن هناك صعدْنا حيث يسكن الزاهي قبالة حديقة مارينغو. كُنّا خمسة بحّارة وأنا، كان شكلي جميلاً ونظيفاً مُقارنة بهم، وهذا أزعجني، عرضتُ على أحدهم أن نتبادل ملابسنا، كان يلبس تشونغاي أزرق قديم حائل، يفوح برائحة السمك، ولكنه تجاهل كلامي.

مشيْنا في جنازة الزاهي حتّى تعبْنا. دفنوه في مكانٍ عالٍ، في جبّانة

القطّار، كان الرجال في الجنازة يحبسون دموعهم، وكُنتُ أنا أُصوِّر من فوق السور، ثمّ تراجعتُ خارج دائرة الجمهور الكبيرة، ووقفتُ أمام مجموعة صغيرة من النساء. لا يحدث هذا دوماً هنا، أن تسير النساء في الجنازات. إحداهنّ اقتربت منّي، كانت جميلة - ربمّا عمرها 29 سنة - سألتْني عمّا يحصل أمام القبر، وقالت إنّها صحفية. فحكيتُ لها كل شيء، قلتُ لها إن امرأة خرجت من وسط الرجال، وقالت إنّها هي التي قصدها الزاهي في أُغنيّته روحي تحاسبك يا العدرا، وبدأتْ تندب وتبكي، كانت امرأة عجوزاً من عمره، ولكن الإخوة والمُلتَحين أمسكوها، وبدؤوا يستغفرون وهم يُبعدونها عن القبر المفتوح برفق؛ دُهشت الصّحفيّة، وسألتْني عن الأُغنيّة، فشرحتُ لها الأُغنيّة والحكاية التي نُسِجَت من حولها، فتحتُ هاتفي حتّى أُسمِعَها الأُغنيّة، فأشارت أن أُوقِفها، لأننا في جنازة. هنا أريتُها الصور التي صوَّرتُها، فسألتْني أين هي المرأة التي قُلتُ عنها، فأخبرتُها أنّها رمَت بنفسها في القبر قبل أن يُخرِجُوها، لذلك لا تظهر هنا، طلبت منّي أن أرسل لها الصور على إيميلها وهي تبتسم، فتشجّعتُ، وطلبتُ منها رَقْمها، لأدعوها للخروج معي، فضحكتْ وأخذتْ هاتفي، لتُسجّل عليه الإيميل، قُلتُ لها إني مُصوِّر، وإن هذا عملي، ولا يُمكنني أن أعطيها الصور مجّاناً، لأني أعيش من هذا، وأريد أن أصنع اسماً في المجال، فنظرتْ إليّ نظرة غريبة، بين الابتسامة والحزن، شيئاً لم أفهمه وقتها، نظرة غريبة ومحايدة يمكنكَ أن تنتظر شتيمة أو قبلة من بعدها، ثمّ ذهبَتْ.

فقَدتُ البحّارة وسط الحشد العظيم الذي تبع الجنازة، انتظرتُ حتّى خرج الجميع من الجبّانة، وسرتُ مع حركة الحشد. عندما عدْنا عبر الأزقّة والشوارع بعد أن تركنا الزاهي وحده، سقط مطرٌ خفيف، وأظلمت السماء فجأة، كأن أحدهم استلفَ الشمس لمجرّة أخرى - يحدث هذا

كثيراً - وشعرْنا جميعاً بأخوّةٍ يتيمة، ونحن نبتعد عن الجبّانة، ونقترب من الأحياء السّفليّة للمدينة. كانت الساعة تُشير إلى الخامسة مساءً، ولم أكُن قد بِعتُ صوري لأيّ موقع إخباري أو صحيفة، وصلْنا إلى النقطة المسمّاة رونفالي، حيث تجمَّع خَلْقٌ كثير بين دار الزاهي وضريح سيدي عبد الرحمان والحديقة. من هناك بانَ لنا البحر في لون الحبر، كان الجوّ بارداً فعلاً، الريح على وجهي جعلتْني أدمع، وعندما التفتُّ إلى المئات الواقفين من حولي، وجدتُهم يبكون في صمت، عيون حمراء تسيل على الوجوه الحزينة.

رفعتُ رأسي نحو الأفق، لأرى أن السماء والبحر قد صارا لوناً واحداً.

***

في الأيّام التي تلَت الجنازة كُنتُ أذهب إلى المسمَكة، لكني لم أصادف البحّارة أبداً، قيل لي إنّهم خرجوا ولم يعودوا، فبدأتُ أترحّم عليهم، لكنّ الرجل الذي يحرس الميناء أوقفَني، شرح لي أنّهم خرجوا من المَسمَكَة، وليس إلى البحر. "ما بلعهُمش البحر يا وليدي"، ردّد لي مُطَمْئِناً، لكني لم أرَ زورقَهُم هناك، شاهدتُ فقط بحّارة آخرين، يربطون زورقَهم في حجر الطّنَهْ.

قرّرتُ أن أذهب إلى قصر الرّيّاس غير البعيد حتّى أرى إذا ما كان هنالك نشاط أو حفلة ما، فقد تعوّدتُ أن أذهب هناك كثيراً، خاصّة عندما تُقام حفلاتٌ موسيقية. أُدعى للغناء دائماً، لكني لا أستطيع أن أُلبّي الدعوة في كل مرّة، يحدُث أن تتصادف الحفلة مع دروس الدعم التي آخذها في شقّة جارتنا سميّة، تُراجِع معي الرّياضيّات، وأعلّمها كيف تلعب الغيتار، وعندما لا أذهب إلى حفلة قصر الريّاس تكون سميّة هي جمهوري الوحيد.

عندما وصلتُ إلى الحصن (واسمه الكامل هو الحصن 23) كان خالياً، لا يوجد فيه أحد سوى الحرّاس. كانوا قد نزعوا عنه السور أيضاً (يبدو أن ولاية الجزائر أرادت التّخلّص من الأسوار كلها)، وصار مفتوحاً على الطريق، تماماً مثل المَسمَكَة. وجدتُ هذا سخيفاً فعلاً، كيف يُمكن أن نترك حصناً بلا أسوار أو تحصينات؟ حاولتُ أن أشرح هذا للحرّاس، لكنهم لم يفهموا، وعندما صرتُ أكَرِّرُ كلامي بصوتٍ عالٍ، أرادوا طردي، فسكتُّ، واتّجهتُ نحو الشرفة، وقبل أن أدخلها وقفتُ على العتبة، وصِحتُ ناحيتهم:

"هكا ويجوا يحاربوكم كيفاش ديروا؟ ها؟ ما عندكم سور لا والو، حتّى المدفع هذا ما يمشيش..." وأشرتُ إلى المدفع الثقيل الذي ينظر بعينٍ واحدة إلى البحر.

يجب أن تفهموا شيئاً، هذا القصر لم يكُن للقراصنة رغم أنّ السّجلّات الرّسميّة تقول ذلك، لا يُمكن لقرصانٍ أن يسكُن أمام البحر هكذا، ويُعرّض نفسه لأوّل قذيفة مدفع. دائماً ما أتخيّل واحدةً كبيرة ومُلتهبة تسقط على الجمهور الذي يرقُص أمام خشبة المسرح عندما أُغنّي. لكن ذلك لا يحدث أبداً. وجدتُ بناتٍ أعرفهنّ على الشرفة، كُنّ يتصوّرنَ مع زُرقة البحر. اقتربتُ، لأُسلِّم عليهنّ، فرأيتُ البحر هائجاً وأمواجه دافعة قوية. عرضتُ أن آخذ لهنّ صورة جماعية. لم يُبدِيْنَ أيّ رغبة لأخذ صورة معي، ربّما لم يحضرنَ حفلاتي، أو ربّما هي مرّتهنّ الأولى في القصر، المُفيد، أخذتُ الهاتف، وبدأتُ أعطي تعليماتي حتّى تكون الصورة جميلة، وضعتُ الهاتف في جيبي، وبدأتُ في إعطاء تعليمات دقيقة إضافية، مَنْ تقِف ومَنْ تجلس ومَنْ تضحك ومَنْ تنظر نحو البحر.

بعد خمس دقائق، صرختْ صاحبة الهاتف، كي أعيدَه لها، خافتْ

أن أسرقه، وقالت إنها لا تريد أيّ صورة، "خلاص، صحّيت، ما راناش في استوديو". شرحتُ لها أنني مصوِّر مُحترف، ثمّ أرجعتُ لها هاتفها، وأخرجتُ هاتفي، ولكنهنّ رفضنَ. هدّدتْني الفتاة السمراء -صاحبة أكبر ترمة في المجموعة - أنّها ستستدعي الحرّاس، فاعتذرتُ، وتراجعتُ، لأني كُنتُ على خلاف استراتيجي مع حرّاس القصر، وأرفض أن يتدخّلوا في عملي كمُصوِّر.

لكني قبل أن أذهب سألتُ الفتاة السمراء صاحبة الترمة، إذا ما كُنّ طالبات في جامعة باب الزوار، وقلتُ إنيّ أدرس في قسم البيولوجيا، قالت لا، لسنَ من الجزائر، بل من وهران. أردتُ أن أحكي لهنّ عن معارفي في وهران، ولكنّهنّ استدرنَ نحو البحر، حيث خرجتْ باخرة كبيرة من الأميرالية للبحث عن البحّارة الذين لم يعودوا منذ أسابيع، قيل إن البحر ابتلعهم، وقيل إنهم حرقوا نحو إسبانيا، وقيلت أشياء عديدة، لكنّي أعرف ما الذي منعهم عن العودة فعلاً.

لم أكن أملك الوقت لفَتْح التحقيق. كان عليّ أن ألتحق بسميّة. تدرس سميّة في جامعة باب الزوار، في قسم الرّياضيّات. ذهبتُ معها أكثر من مرّة إلى الجامعة، لكني لم أدخل معها المحاضرات، بل بقيتُ في الخارج، لأرى معرضَ صورٍ صغير، نظّمه الطَّلَبَة، سألتُهم إذا كان بوسعي المشاركة في المعرض لأني مصوِّر محترف، فرفضوا بأدبٍ بعد أن عرفوا بأني أدرس في جامعة فرنسية، فقد كان معرضاً لطَلَبَةَ باب الزوار فقط. سُميّة شاحبة اللون قليلاً، ولكن شَعْرها في لون القهوة، ويلمع في الشمس. قد يظهر للناس أنّ جسمها بلا انحناءات ولا ترمة مثل تلك التي رأيتُها في قصر الرّيّاس، ولكن به استدارات رهيفة، لا يُمكن رؤيتها تحت الثياب الواسعة التي ترتديها دائماً. أنا لم أشاهدْها، الانحناءات والاستدارات يعني، لكني أعرف أنّها موجودة.

لكن سميّة لم تعُدْ تُكلِّمني، وقطعتْ علاقتها بي بعد تجربة الركوب معي في السّيّارة الشتاء الماضي. هي قبل هذا كانت ترفض مرافقتي في المعارض والحفلات التي أقدّمها، لم تفهم لماذا مثلاً أريد عرض صوري في باب الزوار مع الطَّلَبَة، بل لم تهتمّ برؤية صورهم أصلاً. تتعامل مع الفنّ، كما تتعامل مع طبق لذيذ أو قطعة أثاث جميلة: مُكمِّلاتٌ غير ضرورية للحياة الحقيقية التي يقودها العلم والعمل. يكفي ما شرحتُ، نرجع للمقصود ... كُنتُ قد تحصّلتُ على رخصة سياقة، وصرتُ أخرج بالسّيّارة. ركبتْ معي سميّة من أمام الجامعة، وقرّرْنا أن نذهب لزيارة أصدقائي الصّيّادين. عندما وصلتُ إلى وسط الجزائر، كانت الأمطار غزيرة، سرْنا بالسّيّارة على طول السور الخارجي للميناء، كُنتُ أعرف أنه يوجد موقف سيّارات كبير قبل المَسمَكَة، لكني دخلتُ في البوّابة التي تَلي الموقف، كان هنالك رجال شرطة يفتّشون السّيّارات، ولكني تجاوزتُهم. قطعْنا بالسّيّارة ساحة عارية تحت المطر، كانت سميّة تصرخ أن أتوقّف، لكني كُنتُ أرى بوّابة ضخمة مفتوحة في آخر الساحة.

لم أتمكّن من الدخول، وتمّ إيقافنا. كانت تلك بوّابة موقف الباخرة المتّجهة نحو مرسيليا. بدأتْ سميّة تبكي وتُردِّد "كنت ح ترمينا ف البحر"، لكني طمأنتُها بأن السّيّارات لا تمشي في الماء. اعتقلتْنا الشرطة لمدّة ساعة قبل أن يُطلَق سراحُنا بعدما اتّصلتُ بأحد معارفي الذي وافق على التّدخّل شرطَ أن أعطيه السّيّارة؛ لكن سميّة لم تُصدِّق، وظلّت تُردّد للطَّلَبَة في الجامعة: بابا هو مَنْ تدخّل.

***

سميّة كانت عاقلة مقارنة بماريا التي عُدتُ والتقيتُها في التراموای. اقتربتُ منها وقلتُ "كوكو" (أعرف أنّها تحيّة سخيفة) استدارتْ ونظرتْ نحوي لبضع ثوانٍ، ثمّ قالت "أهلا". ماريا عيناها سوداوان فعلاً، ليستا

بُنِّيَّتَيْن ولا قهويَّتَيْن، ولا أيّ لون آخر داكن. كحلة تاع الصح. وبشرتها مثل القمح، حنطية. قلتُ لها:

"راني نركب التراموای... نحّاولي البيرمي...".

نظرتْ نحوي متسائلة، فأكملتُ:

"وحبّيت ندّي النيميرو تاعك باش كي نجيبو نجوزلك بالطونوبيل وما تركبيش التراموای أنتِ تاني".

انفجرتْ بالضحك، ولاحظتُ لأوّل مرّة صدرها. كان كبيراً فعلاً. كبيراً وراكِزاً، وليس مثل الصدور الكبيرة الأخرى. قالت إني لم أرسل لها الصور أصلاً، ولم أراسلها على الإيميل. فقلتُ إني كُنتُ أنتظر فرصة اللقاء الثاني، فأعطتْني رَقْمَهَا.

بدأنا نخرج مع بعض. كانت تسكن في حسين داي، وكُنتُ أنتظرها تحت الدار أو أصعد وأنتظرها، لتفرغَ من لبسها. كل ليلة نذهب إلى مكان مختلف، وأضطرّ في كل مرّة أن أُبرّر غيابي. ماريا مثلاً لم تكُن لتُبالي لو صعدْنا في باخرة نحو مارسيليا، لكنني لم أكُن مُهتماً أن أكون قرصاناً معها، خاصّة بعد أن ذهبْنا لحفلة الشيخ سيدي بيمول التي أطلق فيها ألبومه إزلان إبحريين عن أغاني البحّارة الأمازيغ. سألتْني ساخرة إذا ما كُنتُ سأُصوِّر الحفلة، لكني كُنتُ قد حضّرتُ لها مفاجأة أخرى، قالت لي إنّها تعرف سيدي بيمول شخصياً، وستحاوره بعد الحفلة، ويمكنني أن أرافقها، فقلتُ إني أُحضِّر مفاجأة أخرى.

كُنتُ مَدعُوّاً للغناء على المسرح جنب سيدي بيمول. دخلتْ ماريا معي إلى غُرف تغيير الملابس، وقالت متعجّبة إنها لم تكُن تعلم أني أتكلّم القبايلية، كان هذا كل ما أثار استغرابها. شرحتُ لها أنني أتكلّم

لغاتٍ عديدة. قبّلتْني خلف باب الغرفة الصغيرة، التصقْنا لدقائق طويلة، حتّى شعرْنا بأنفاسنا تحرق وجهَيْنا، عصرتُ صدرها، وكانت يدي ترتعش قليلاً، لم أكن قد أخبرتُها بعد عن عمري، وبدا لي أنها كانت تتفادى الكلام حول هذا الموضوع. بعدها صعدت إلى المسرح. كانت ليلة عجيبة، صفّق لنا النّاس حتّى تعبوا، وصرخوا حتّى بُحّوا، وكُنّا نحن خلف الشيخ نربطُ الحبال والأشرعة، وندفع بالسفن وسط المياه، ونُخرِجها من العواصف، نفقدُ رجالاً، ونصطاد حيتاناً، وفي الأخير، شكرتُ الجمهور، وقُلتُ تلك الجملة التي استعادتْها عناوين الصحافة كلها: "سيدي بيمول هو الرجل الذي علّمنا أنّ البحّارة أهمّ من القراصنة".

أراد سيدي بيمول بعد الحفلة أن نرافقه هو والفرقة إلى حفلة عشاء صغيرة، لكننا كُنّا سكرانين بما يكفي، ماريا هي مَنْ قادت ليلتها، ذهبْنا إلى شقّتها مباشرة، لنُكمل ما بدأناه في الكواليس. أتذكّر تلك الليلة جيّداً. رائحة الفانيليا في كل مكان. كان زميلتها في السَّكَن قد اتّبعت وصفة فاشلة لصنع كعك الموسكوتشو، وأضافت الكثير من الفانيليا ممّا تسبّب في فوحان الرائحة بفعل حرارة الشّقّة. وجدْنا كعكة الموسكوتشو فوق طاولة المطبخ، مثل دليل الجريمة. كانت جميلة وموضوعة فوق طبق أنيق، كانت كاملةً تقريباً، تنقصها قطعة صغيرة جهة اليمين، أظنّ أن لينا - زميلة السَّكَن - اقتطعتْها للتّذوّق. انتبهتُ لهذا كله في الصباح طبعاً، لأننا عندما وصلْنا إلى الشّقّة - وبعد عشرة طوابق - لم أعد أرَ شيئاً، كان المطر غزيراً والبرد يضرب العظم. الشّقّة كانت مظلمة ودافئة وغارقة في رائحة الفانيليا. نزعْنا أحذيتنا كما اتّفق أمام الباب، وقادتْني ماريا من يدي إلى غرفتها في آخر الممرّ، أمام اللهب المتوهّج للمدفأة، بدا الممرّ مظلماً لا ينتهي، لم أنتبهْ حتّى سقطتُ على المطرح الكبير والمريح المفروش على الأرض، ثمّ سمعتُ صوت قفل الباب. سقطْنا في حفرة دافئة ومظلمة، وغابت رائحة الفانيليا. كانت ماريا

صامتة وخفيفة الحركة، وصدرها حاضراً كالعادة وصلباً، كان كل شيء حاضراً ومتجانساً ... لكني لا أذكر شيئاً الآن، سوى الثواني التي عدتُ واستيقظتُ فيها وسط الليل، كانت رائحة الفانيليا قد عادت، وشبح ماريا يتحرّك في الغرفة، كي تلتحق بعملها، ربّما كان الوقت فجراً، لأني سمعت صوت أذان جميلاً، سقطتُ في النوم مرّة أخرى. وفي الصباح استيقظتُ بصداع نصفي، لأجد أن الجميع غادر الشّقّة، كان يصلني صوت المطر في الخارج، سرتُ نحو المطبخ، لأجد كعكة الموسكوتشو على الطاولة، حاولتُ تحضير قهوة، لكني أخفقتُ، حاولتُ متابعة ما قاله الناس في الصحافة وعلى فيسبوك بخصوص الحفلة، لكني لم أجد شيئاً يخصّني، ثمّ مات هاتفي، ولم أجد شاحناً. استمرّت رائحة الفانيليا شتاءً كاملاً، لم يفتحنَ النوافذ، ولم يطفئنَ المدفأة، وبقيْنا نسمع صوت أذان الفجر كل ليلة حتّى اعتدْناه؛ أمّا ماريا، فقد قالت إنيّ لم أفعل شيئاً في الليلة الأولى سوى عَضّ حَلَمَتَيْها ممّا جعل نهدَيْها يتصلّبان، ثمّ تركتُهما هكذا، وسقطتُ في النوم ... لكني أعرف أنها تحبّ المزاح.

***

بعد تلك الحفلة بأيّام، حصل شيء قَلَبَ حيواتنا على رأسها. فَقَدَت السماء نورها، وكانت الأمطار لا تتوقّف. ترك بابا العمل في سوناطراك، تقاعدٌ مُبكّر. وقرّر إطلاق شركته الخاصّة مع صديقَيْن له. شركة تعمل في تركيب وتفكيك الرادارات الكُبرى لشركات الاتّصال. بدأت الشركة في تسلّم الطلبات، وحصلوا على أكثر من سوق عمل هنا. وبعد أشهر، كان عليهم السفر إلى أنقرة لشراء رادارات وهوائيات جديدة وضخمة من شركة سويدية. وهناك، على الطريق الرابط بين اسطنبول وأنقرة، الطريق الذي يسَعُ ستّة رواقات سير - حسب ما رأت عيناي -، نزَف بابا حتّى الموت بعد أن اصطدمت سيّارتهم بقطيع ذئاب، خرج من الغابة

المُحاذية للطريق السريع وسط الثلج. كان الوحيد الذي مات، تعرّض أصحابه لجروح وكسور، لكنهم لم يموتوا. عادوا به في نعشٍ خشبيٍّ، وطلبوا منّا ألّا نفتحه، وأن نحتفظ بصورته في أذهاننا.

دفنّاهُ في جبّانة قاريدي بالقبّة، لم يأتِ الكثيرون للجنازة. لاحقاً عندما عُدْنا من أجل بناء القبر، وجدْنا حارس الجبّانة يُصلّي وأمامه ألواح رخامية مُربّعة، كُتب عليها آية سورة الفجر "أيّتها النَّفسُ المُطمئنَّةُ ارجعِي إلى ربِّكِ راضيةً مَرضِيَّةً فادخُلي في عِبَادي وادخُلي جنَّتي"، عندما سلَّم وانتهى من صلاته، سألتْه ماما إذا كان قد حضّر كل شيء، فقال نعم. لكنّي اعترضتُ على الشّاهد الرّخاميّ، واقترحتُ أن يكتب فيه "سلام هي حتّى مطلع الفجر"، لم يفهم اقتراحي، وبقي ينظر نحونا ببلاهة. قلتُ له بأنّ الآية من سورة الفجر أيضاً، لكن ماما اعترضت، وقالت أنّ لا علاقة لها بالميت، وكذلك قال الحارس، وتجاهلاني. لكني أصررتُ على موقفي، وقلتُ لهم إن الآية الأولى مكتوبة على كل قبور المسلمين في العالم، تركوا القرآن كله، وكتبوا آية واحدة، حاولوا تهدئتي، لكن الأوان كان قد فات. أخرَجُوني من الجبّانة وأنا أصرخ وأسبّ الدِّيْن للحارس. لم أشاهد عملية بناء القبر.

***

بعدها بمدّة، رافقتُ ماريا إلى سهرة بمنزل أصدقائها بسيدي فرج، إلى الميناء الصغير. كُنتُ قد صرتُ معروفاً بسبب صوري وحفلاتي، ولكن أحداً لم يأتِ ليُكلِّمني. كانوا جميعهم يكبرونني في السّنّ. كان الجوّ جميلاً، وتفرّق الجميع على الشاطئ الرّمليّ جنب الميناء. كان القمر بدراً مُكتمِلاً مثل دبّوسٍ، يُثبِّتُ ورقةَ الليل. بقيتُ أشاهده طويلاً حتّى دمعت عيناي. جاءت ماريا، ووقفتْ بجانبي، أردتُ أن أضع ذراعي حول كتفها، تركتْني أفعل، ونظرتْ نحوي كما فعلتْ أوّل مرّة في جنازة

الزاهي، وكما كانت تفعل بعد كل مرّة أتمدّد أمامها ونحن عاريان، الخوف نفسه والجمال نفسه، كأن وجهها كله ينكمش خلف عينَيْها السوداوَيْن وخصلات شَعْرها السوداء أيضاً. ثمّ جاء الصمت، كأن شيئاً سيُعلِن عن نفسه. بعد هذا لا أعرف ما الذي حصل بالضبط.

لم أعد أتذكّر ماذا حدث بعد تلك السهرة. أريد فعلاً أن أعرف، لكنْ، هنالك طبقة من السواد والظلمة الناعمة تُغطّي تلك الليلة وما تلاها، ماما تقول إنّ تلك الليلة لا وجود لها. رغم أنها تقول أيضاً إن بابا عاد في الشهر نفسه، وفي ليلة بدر. عاد قليل الكلام، لا يشبه نفسه كثيراً. لكنْ، هل يكون القمر بدراً أكثر من مرّة في الشهر نفسه؟ هو أيضاً له رأي في الموضوع، وصار يقول ما الذي حصل وما لم يحصل. يتحدّث عن قطيع الذئاب الذي خرج من الثلج، واصطدمت به السّيّارة. رفض أن يلتقي أصحابه.

لا شيء هنا سوى البرد والظلام. الماء في كل مكان. لم أتصوّر يوماً أني سأخاف البحر إلى هذا الحدّ. المساحة ضيّقة، وهناك أناس كثيرون، أكثر ممّا يحتمل القارب. الجميع يشعر بالدوار ويتقيّأ. هنالك مَنْ تقيّأ داخل القارب. الرائحة نتنة. البعض جلب معه أولاده. أقرب للرُّضَّع منهم للأطفال. لا يمشون ولا يتكلّمون، سمعناهم يبكون في البداية، لكنّنا فقدْنا أصواتهم منذ أن دخلْنا في الليل. الليل هنا لا ينتهي. والضباب أيضاً. ندخل في الضباب، ونخرج في الليل، ثمّ نعود للضباب، وهكذا، لم نرَ النور منذ مدّة طويلة. القارب بعيد عن اليابسة، لا نستطيع سماع أذان الفجر هنا، أشعر أني أقطع الليل كله دون أن أدري في أيّ اتّجاه أسير. أتذكّر تلك الليالي مع ماريا، كُنتُ أسمع الأذان، فأعلم أن رحلة الليل قد انتهت، وأنام ساعات إضافية، كُنتُ أسمع صوت المؤذّن بعيداً وقتها، لكني كُنتُ أعرف أني وصلتُ إلى الصباح.

لم أعد أشعر بأطرافي. كأنّ هنالك مَنْ يقصُّ عضلاتي بمقصٍّ. أتكوّم في نهاية القارب، وأشعر بالغثيان دون أن أنجح في إفراغ معدتي. هنالك رجلٌ يُوزِّع علينا أقراصاً بيضاء. سألتُهُ إذا ما كان يملك ماءً، أشعر بالعطش، وأريد أن أبتلع القرص الأبيض. لكنه لم يجبْ. البعض غَرِقَ من ماء البحر. أنا وحيد رغم أني محاطٌ بعشرات الأجساد. لستُ متأكّداً من أن الفتاة التي رأيتُها تلفّ شَعْرها بشالٍ أسود هي ماريا. ركبتُ في مقدّمة القارب مع جماعة أولاد وبنات. المقدّمة تبدو بعيدة جدَّاً من مكاني. القاربُ يتهادى، أشعر بأنّه سينقلبُ في أيّ لحظة.

أفكّر الآن أن شيئاً ما قد حصل في موقع الحادثة على الطريق السريعة في تركيا. لا أستطيع التركيز. ربمّا بسبب الأقراص البيضاء. لا أدري. أغفو وأستيقظ في حالة أكثر سوءاً. أجدُ وجهي مالحاً. لا أعرف إذا ما كان بسبب ملح البحر أو بسبب دموعٍ أذرفها وأنا نائم. أرى الجميع ينام بعيون مفتوحة، تُحلقُ في القمر الذي لم يتحرّك من مكانه منذ خرجْنا في هذا القارب. يبدو قريباً جدَّاً. بدرٌ مُكتمل، لم ينقصْ منه خيط. أحاول أن أقوم أو أُعدِّل جلستي، فلا أستطيع، الأجساد من حولي تضغطني وتصير ثقيلة. أرفع يدي لألمس القمر. أريد أن أُسقِطَه في البحر ليغرق. كي يعود البحّارة إلى مَسمَكتِهم، ويتوقّفون عن مطاردة خيال القمر فوق الماء، وكي يموت الذئب الجريح الذي عاد في هيئة بابا، وتفيق ماريا من نظرتها الحزينة، وتأتي نحوي، وحتّى يتوقّف المَدّ والجَزْر في البحار وداخل أجساد البشر، وتنتهي رحلتنا، وينتهي معها كل شيء.

القطاراتُ تغادرُ قبلَ الزلزالِ

في سنتي الجامعية الأولى، كُنتُ أركب قطار الجزائرفي الساعة السابعة والنصف صباحاً كل يوم من محطّة الرغاية. أنزل درج المحطّة، وأقف بين عشرات المسافرين على الرصيف المبلّل. تقع المحطّة في منتصف المسافة بين البيت واللّيسي الذي كُنتُ قد تخرّجتُ فيه منذ أشهر، وكلّما كُنتُ أدخلها، كُنتُ أشعر أنّي أتبعُ تيّاراً جديداً، يُبعدني أكثر فأكثر عن الملاعب القديمة؛ حتّى جاء اليوم الذي أكّد هذا الشعور.

كل صباح، كانت تتشكّل غيمةٌ من أنفاس المسافرين فوق الرصيف، ثمّ يأتي صوت القطار، ليخترق الهدوء والرطوبة. طيـــط، فيميلُ الجميع برقابهم نحو جهة الشرق، خمس ثوان ... عشرة ... لا شيء. ينظرون في الاتّجاه المعاكس، فيجدون القطار القادم من الجزائر باتّجاه الثنية قد وصل. دائماً ما يخدعهم الصوت.

بعدها بدقائق يصِلُ من الشرق قطار الجزائر. مثل موجةٍ زرقاء، يركبها كل مَنْ على الرصيف. دائماً ما كُنتُ أصعد آخر واحد، وغالباً ما كُنتُ ألتقي زملاء سابقين يتّجهون إلى جامعاتهم الجديدة، أو يرافقونني إلى جامعة باب الزوار. تبعد محطّة باب الزوار ربع ساعة تقريباً عن محطّة الرغاية، تقع مباشرة خلف السور الشّرقيّ للجامعة كبيرة المساحة، وفي تلك السنوات، في فصل الشتاء، كانت الأمتار التي نقطعها بين المحطّة والسور (أو حتّى داخل الجامعة) كلها بركٌ وحُفر طينٍ وماء.

وقتها كُنتُ أخرج مع سارة، كانت زميلتي السابقة في اللّيسي، وكُنّا نلتقي مرَّتَيْن في الأسبوع. اختارت هي المدرسة العليا للبيطرة بعد البكالوريا، تقع في واد السمار، على بُعْد نصف ساعة من جامعتي. لا أنزل في محطّتي، وأُكمِل حتّى "المحطّة التالية واد السمار... Prochain arrêt Oued Semmar"، كما يُردِّدُ الصوت المعدني لامرأة القطار.

سارة، فتاةٌ هادئة جدّاً، أرادت أن تدرس الطِّبَّ، لكن معدّلها لم يسمح بذلك، فاكتفت بالبيطرة. تعزف البيانو أيضاً، ولكنها توقّفت قبل سنوات عن ارتياد الدروس. شَعْرها أشقر، وفمها صغير، قامتها نحيفة، وساقاها طويلتان، وتشبهان قوسَيْن مضمومَيْن () بسبب سباحة الفراشة التي مارستْها لسنوات أيضاً، ممّا أعطى ترمتها شكلاً غريباً وجميلاً في الوقت نفسه. وطبعاً كانت تملك أُمّاً صامطة ومملّة ورقيبةً صارمة.

كُنّا نلتقي قبل أو بعد الدروس. كُنتُ أُفضّل بعد الدروس، لكن سارة لم يكن بإمكانها التّأخّر في العودة مساءً. قبل الدروس، يعني في الصباح الباكر. في تلك الصباحات الشّتويّة، كُنتُ أشعر أن موجة زرقاء رمتْني في شاطئ رمادي مهجور. محطّة واد السمار صدئة، متآكلة وبلا لون. يُكمِل القطار رحلته، وأنزل أنا منتَبِهاً لخطواتي.

في الخارج، تقف سيّارات طاكسي قديمة ومتهالكة، بين المدرسة العليا للإعلام الآلي وسلسلة من المحلّات والمقاهي العشوائية. يقطع الطاكسي جزءاً من واد السمار، طريقٌ طويل بمحلّات تجارية، لم تُفتَح بعد، وفيلّات بطوابق عليا نصف مكتملة. أمّا على الجهة اليُسرى، تمتدُّ أراضٍ، يكسوها العشب، وينتصِبُ خلفها تلٌّ أخضر، يسدُّ الأفق، كان في زمن قريب أكبر مفرغة قمامة في المدينة.

من خلف الزجاج المتّسخ للطاكسي، كُنتُ أرى ذلك التّلّ الأخضر

ينام على بُعْد مئات الأمتار، خلف سكّة الحديد، مثل سنورلاكس، ذلك البوكيمون الضخم الذي ينام ويشخر، ولا يستدعيه أحدٌ للقتال.

يتركُني الطاكسي قبل حَيّ بيلفور، أمام مُلحقة مدرسة البيطرة. يوجد هناك موقف حافلات صغير، على بُعْدِ أمتارٍ من مدخل المدرسة. موقفٌ مهجور، يُقابله على الرصيف الآخر سورٌ طويل وعالٍ لثكنة عسكرية. أمسحُ الكرسي المعدني بمنديل ورقي، وأجلس مُحاذِراً البرد الذي يلسعُ ترمتي. أتحرّك في جلستي طلباً لقليل من الدفء، وأتفقّد ساعتي: الوقتُ تجمّد.

من مقعدي، كُنتُ أرى ذلك الجندي دائماً يحرسُ أعلى السور، لا ينظر إلى شيء، ويده ملتصقة بالسلاح البارد، مُنكَمِشاً داخل لباسه العسكري الأخضر، جندي يقضي خدمته العسكرية، لا يعرف ماذا ينتظر، ولا ماذا يحرس، ولم تنتهِ نوبته بعد، كي يذهب ليتدفّأ ويرتاح.

الجندي ينتظر، وكُنتُ أنا في تلك الصباحات كلها، أُراكِمُ انتظاري على انتظاره. أُشعِلُ سيجارة. كُنتُ أتعلّم الدخان في ذلك الوقت، وأتعلّم كيف أتحايل على القلق بالتدخين حتّى لا أضطرّ في كل مرَّة للبحث عن أقرب تواليت. أنفض رماد السيجارة، وأنظر من حولي. لم أكن قد تخلّصتُ بعد من تلك العادة. أتصوّر أن ماما ستُباغتُني في أيّ لحظة. كُنتُ أشعر بالذنب.

ماما موظّفة البنك الخمسينية، والتي كانت تتحضّر للخروج في تلك الصباحات نحو عملها، بقلّة النوم التي فيها، بأمراض القطاع العامّ التي تتشاركها مع آلاف الموظّفين، بأحذيتها الجِلْدِيّة الداكنة المتينة، بمعطفها الذي لم يعُد جديداً، بصياغتها المُخبّأة في بيت أُمّها، بوساوسها حول حنفيات الغاز والماء، وإصرارها على تهوية الغرف قبل

أن تخرج، بالراديو الذي تنساه مفتوحاً في غرفتها. ماما التي لا زالت تُعطيني المصروف.

سيجارة ثانية. تصير عُقدة الذنب مُحكَمَةً أكثر داخل بطني.

لم تكُن سارة تأتي في الوقت، تُوصِلُها والدتها، التي تتبعُها وتحوم حولها مثل طائرة هيلكوبتر، بتأخير لا يتجاوز نصف الساعة. تدخل المدرسة، لتطلب من صديقاتها تغطية غيابها، بينما أبقى جالساً أتساءل لماذا عليّ أن أعيش علاقة، تأخذ مواعيدها أماكن وأوقات غريبة؟! حصل حتّى إنّها دخلت ولم تخرج، أرسلت تُخبرني في SMS أنّها لن تستطيع تغطية غيابها. راح الموعد، ومات اليوم قبل أن يبدأ. في كل مرّة، كُنتُ أضطرّ لترك الموقف، أقوم مُتلفّتاً، غير عارفٍ ماذا أفعل بيومي.

كُنتُ أتساءل أين ستذهبُ السعادة المُفترضة لذلك اليوم؟

وهذا ما دفعني في ذلك الخميس، لأن أترك مقعدي وأنصرف. كان الطَّلَبَة يخرجون، يتجمّعون عند البوّابة، ثمّ يتفرّقون مبتعدين نحو حافلات الطَّلَبَة. يومها شعرتُ أنّ كل شيء كان واضحاً. خرج الجميع، وكانت هي تُماطل حتّى تتأكّد من أن أُمّها لن تأتي. لا أعلم كيف ومتى شعرتُ بذلك، فجأة سقط ثقلٌ كبير، مثل محراث على كتفَيّ، قلتُ لنفسي بأن كل هذا الانتظار والمواعيد المبتورة تزيد الأمر سوءاً. كان يوم خميس، وكانت السماء رمادية، وقلتُ إنه بإمكاني المشي حتّى مفترق الطُّرُق الكبير، وبدل أن أُكمِل نحو المحطّة، أستدير يساراً، وأمشي لمدّة ربع ساعة في الطريق الطويل والخالي للإقامة الجامعية للبنات، أتجاوز حَيّ الجُرف، وأسير مع السور الطويل واللانهائي لجامعتي، ثمّ أصل إلى الشارع العامّ الموازي للجامعة، حيث لا تزال أشغال الترامواي تُغلِق الطريق.

نظرتُ لساعتي مرّة ثانية، وأطفأتُ السيجارة. تلمّستُ مفاتيح البيت في جيبي، واجتزتُ الطريق نحو سور الجندي، وسرتُ يساراً من حيثُ أتيتُ. كانت الساعة قد تجاوزت الخامسة وعشرين دقيقة. بردٌ شديد، وريح قوية.

كانت الطريق طويلة، حاولتُ إيقاف طاكسي، لكني لم أنجح ... حاولتُ مرّة أخرى ... والو. كُنتُ أرفع إبهامي، لكنْ، لا مُجيب. بقيتُ أُشيرُ لهم رافِعاً حواجبي، ومبتسماً، ولكني كُنتُ أُتمتِمُ ولاد قحاب.

أصلاً لم أكُن أركب طاكسيات وقتها. آخر مرّة ركبتُ فيها طاكسي، كانت عندما تأخّرْنا، سارة وأنا، في العودة من قصر المعارض. سرْنا من المعرض حتّى محطّة حافلات الطَّلَبَة ببوراوي، ومن هناك حاولْنا الوصول إلى محطّة القطار. مشيْنا المسافة نفسها التي مشيتُها تقريباً، ثمّ أوقفْنا طاكسي. ركبتُ أمام السائق، وركبتْ هي في الخلف. سارت السّيّارة قليلاً، ثمّ توقّفتْ في بداية سلسلة الزحام. وبينما مدَّتْ سارة يدها عبر الفسحة الضَّيِّقة بين الباب والمقعد، كي تُمسك يدي، سألني السائق:

"نفتح الراديو، معليش؟"

"إيه..." أجبتُهُ.

"الراديو؟"

"إيه معليش... قلتُ لكَ".

"صحّة، على خاطر كاين اللي ما يحبّوش، بصّح نتوما باينين صغار وتقراو ف ليكول تاع الفلاحة هذيك، صح"؟ قال السائق وابتسم. كان شخصاً قصيراً وسميناً، ويضع قُبّعة بيري سوداء متآكلة.

ومن دون تفكير، أجبتُهُ:

"صح"، كُنتُ أكذب.

"إيه، عرفتُها ...".

لم أُعلِّق، بقيتُ أنظر إلى الأضواء الحمراء التي تشتعل في مؤخّرات السّيّارات، كلّما ضغط السائقون على المكابح. وبعد قليل، ظهرت تلك المزبلة الكبيرة على اليمين. كانت هُنالك جرّافات ضخمة - لكنّها كانت تبدو صغيرة جدًّاً من بعيد - تتسلّقها وتُغطّيها بالتراب.

تمتَم السائق شيئاً بخصوص السّيّارات وانسداد الطريق، ثمّ رفع صوته:

"أنا لو كان جيت في بلاصتكُم ما نقعدش هنا ... أنا كُنتُ بلا ديبلوم وهربت ف 99 ولاّ 2000 ... نسيت ... طلعت لفرنسا ... وقبل ما نبدا نتنفّس زدموا عليا ولاد الحرام ... تعرف نهار شدّوني البوليس تاعهم وحبّوا يهبطوني هنا، ما قدرولیش ... بدِيت نتخبّط كي التّور ... الخاوة اللّي عاشوها يعرفوا ... ركبوني ف الطونوبيل كسّرت الزجاج برجلي ... دارولي المورفين في ذراعي باش دُخت ... هبطوني ف الطيّارة بالكاميزول ..." كان السائق يتحدّث وهو ينظر أمامه، كان يتجاهلنا تقريباً: "جيت هنا رجعت نشوف الدنيا بيضا وكحلة ... صرالي كيما التليفيزيون كي يبلوكي ... يكتب لك NO SIGNAL ... ما أمنتش روحي ... في هواري بومدين ما عندي حتّى دورو ... هبلت وحسابي تصفّى ..." سكتَ، ثمّ أكمل: "صح عشت الميزيرية لهيه، بصّح ميزيرية حلوة ... غير روحوا ثمّ واتزوجوا، تاخدوا رايي"، ثمّ أضاف بعد ثوانٍ: "ولاّ نقولك ... ما تتزوجوش".

أخذتُ نَفَساً عميقاً، وأجبتُهُ:

"ونروحو للجبل ونشرو الأرض ونربّو البقر... واش رايك؟"

"مليحة، هاي الهدرة، غير روحو، ما بقاتش معيشة هنا..." سكت، ثمّ نظر نحوي بطريقة غبّية: "هنا ما بقى والو".

كانت الشمس قد غابت حينها، وكانت المزبلة عبارة عن كُتلة سوداء، تتحرّك فوقها الجرّافات مثل نملاتٍ صفراء ضخمة، ومن الخلف كانت سماء الغروب تتخلّى عن ألوانها ببطء. تعقّدت حركة السير، وقال لنا السائق إنّه سيكون من الأفضل أن نُكمِلَ الطريق مشياً، إذا أردنا اللحاق بالقطار. رفض أخذ أجرته. ابتسمَ، وتمنّى لنا رحلة مُوفّقة وخروجاً آمناً من البلاد.

خرجْنا من السّيّارة، وصرنا نمشي بسرعة قبل أن نبدأ في الجري. كانت الطريق يومها أجمل من مساء يوم الخميس هذا الذي تركتُ فيه مقعدي.

أكملتُ المشي وحيداً، وفكّرتُ بالخميس، قلتُ لنفسي بأن الأمور ستتحسّن مع الخميس، الخميس كان وعداً بعيداً، مُستقبلاً غير أكيد وقريب في الوقت نفسه. كُنتُ واعياً أني أهرب من العلاقة، وأُنهيها بطريقة غبيّة، قلتُ لنفسي وأنا أتقدّم بأنني لن أذهب إلى الجامعة. واصلتُ التّقدّم، وقُلتُ بأن الأمور ستتحسّن.

***

وصلتُ إلى مفترق الطُّرُق والدّوّار الكبير لواد السمار، لكني لم أُكمل سيري في خطٍّ مستقيم، بل استدرتُ على اليسار. بعدما تجاوزتُ الإقامة الجامعية للبنات، وقبل أن أصل إلى باب الجامعة الذي يُقابل

سوق حَيّ الجرف، انتبهتُ لسيّارة بيجو 207 برتقالية اللون، مركونة بجانب الرصيف، قلتُ لنفسي لو وصلتُ إلى السّيّارة، ووجدتُ أن مَنْ يجلس داخلها هو مجيد، فلن يضيع اليوم هباءً، أمّا إذا كان شخصاً آخر - وهذا ما كُنتُ أتوقّعه - فسينتهي اليوم كما بدأ ... خَرَا.

الساعة كانت تقتربُ من السادسة. برق. رعد. ثمّ انشقّت السماء عن مطر غزير، تلمّستُ حقيبة ظهري، لكني لم أجد المَطرِيّة. السور على يميني كان من دون تيندة، لا شيء يحمي من المطر، فبدأتُ في الركض. ولكني لم أستطع تجاهل البيجو عندما عبرتُ من أمامها، تلفَّتُّ، لكني لم أرَ شيئاً، كان البخار يغطّي زجاج النوافذ من الداخل. واصلتُ الركض والقفز فوق برك الماء، حتّى سمعتُ صوتاً ينادي باسمي. عرفتُهُ في الفور. لا أعلم لماذا ابتسمتُ. استدرتُ لأجد مجيد يُخرِج رأسه من النافذة. اتّجهتُ إلى السّيّارة متفادياً برك المطر، لم أرَ شيئاً من الخارج، كان البخار يغطّي النوافذ من الداخل، أشار بيده إلى الخلف، وعندما فتحتُ باب السّيّارة، انتبهتُ لوجود فتاة في المقعد الأمامي.

كان مجيد زميلاً من اللّيسي، التحق بجامعة باب الزوار أيضاً، في كُلِّيَّة الرّياضيّات والإعلام الآلي (MI)، لكني فقدتُ أثره بعد البكالوريا، بعدما جلسْنا سنة كاملة إلى الطاولة نفسها. فقدتُ أثره، لأنه كان يملك سيّارة، ولا يركب القطار أبداً، كان يكبرني ببضع سنوات، وكان يملك رخصة سياقة منذ كُنّا زملاء، وكان يركن البيجو البرتقالية في موقف أمام اللّيسي. كانت السّيّارة لأُمّه، لكنها لم تكن تستعملها، أمّا هو، فكان يذهب أكثر من مرّة في الأسبوع عند قريب له، يسكن في سعيد حمدين. كان لدى مجيد الكثير من المعارف خارج الرغاية، كانت له حياة أخرى في وسط العاصمة، كان يعرف أولاداً وبنات من هناك، ويذهب للسهر معهم.

أقلّ شيء أصف به الفتاة هو أنها كانت بومبة. بشرتها بيضاء، وشَعْرها ينسابُ مثل الماء، يهتزّ كلّما حرّكت رأسها، هنالك شوشة مقصوصة بعناية فوق عينَيْن بلون العسل. كان خدّاها حمراوَيْن، وصدرها يكاد يخرج من القميص الأحمر والأزرق الذي كانت أزراره العليا مفتوحة. لم أفهم لماذا جاء بي مجيد إلى السّيّارة. كان يُدخّن في صمت، ويُنزِل نافذته بضع سنتمترات، كلّما أراد نثرَ الرماد.

كان موقفاً مُحرِجاً. ازدادت غزارة الأمطار. وأردتُ التدخين بشدّة.

"سيليا"، قال مجيد وهو يُقدِّم لي الفتاة بجانبه.

انتظرتُ أن يقول اسمي، لكنه لم يفعل، خمّنتُ أنه أخبرها عنّي بعد أن ناداني. مدّت الفتاة يدها، كانت تبتسم بنصف اهتمام، كانت يدها طَرِيّة ودافئة بينما كانت يدي باردة مثل قطعة جليد.

"enchantée..." قالت سيليا، بينما هززتُ رأسي، وابتسمتُ.

فكّرتُ في التدخين، لكني تردّدتُ.

"واش، هابط للدار؟" استدار مجيد، وسألني.

"وأنت راك هابط؟"

"لا لا، بالاك نطلعو لآلجي هكّا شوية".

حلَّ الصمت لثوانٍ. تخيّلتُ الطريق الطويلة إلى البيت. قلتُ لنفسي إنيّ سأخرج من السّيّارة للمطر، لأصل محطّة القطار مبلّلاً، ثمّ أقاتِل من أجل الحصول على مكان، أقف فيه داخل العربات المكتظّة.

"تجي؟ بالاك كاين soirée تاع واحدة صاحبتنا، ما تعرفكش بصّح نورمال تقدر تجي." قال مجيد قاطعاً الصمت.

وافقتُ دون تفكير، وتركتُ نفسي أسقط على المقعد الخلفي. خفّتْ رغبتي في التدخين، واستسلمتُ لدفء السّيّارة وصوت المطر وانعكاس الأضواء المشوّهة للشارع والسّيّارات على النوافذ. انطلق مجيد داخل الزحام الممتدّ من الجامعة حتّى تقاطع خطّ الترامواي مع الطريق السريعة.

أرسلتُ SMS لماما، أخبرتُها ألّا تنتظرني، وأني سأقضي الليلة عند وليد.

كانت سارة قد اتّصلت أكثر من مرّة. لم أُغلِق الهاتف حتّى لا تتوتّر ماما. وفي حدود المعرض الدّوليّ، وجدْنا زحاماً طويلاً فعلاً.

سيليا كانت قد أغلقتْ أزرار قميصها، ورغم ذلك لم يستطع القميص احتواء صدرها كلّه. حاولَتْ وضع موسيقى من هاتفها، لكن مجيد كان يمنعها، ويُشغِّلُ - عن عمد - بلاي ليست كاملة لمغنيّي الكباريهات، من الشّابّة صباح لهواري منار وصولاً إلى أمين تيتي، ذلك المغنّي السمين، الذي بدأ عازف ترومبيت:

شدّي عليا طالبك / راه رشّى لي القلب / ما نزيدش نوالفك / أنتِ وحدة danger

وعلى هذا الإيقاع انطلقْنا نحو السهرة.

***

توقّفْنا في زقاق ضيّق، لا أعرف اسمه، وسط الجزائر. نزلتُ مع مجيد،

قال إنه سيشتري الشراب. لم أكن أعرف شيئاً عن الكحول، تبعتُهُ في صمت. لم أكن قد جئتُ ذلك الزقاق من قبل، دخلْنا المحلّ الذي فتحَ باباً صغيراً فقط، قال لي مجيد إنه المكان الوحيد الذي يُمكن أن يوجد فيه كحول عشية يوم الخميس، لأن الجميع يُنهون بيع سلعتهم في وقت باكر.

كان هنالك حوالي عشرة أشخاص، كلّهم يثيرون ضجّةً بخصوص انتهاء البيرة الباردة، كانوا يبيعون من المخزن مباشرة، يُخرِجُونها من ظلام المخزن لظلام أكياس الزبائن. مجيد اشترى زجاجات ويسكي، لم يسأل عن البيرة. سألني ماذا كُنتُ أفعل في تلك الطريق الخالية؟ أخبرتُهُ أني أنهيتُ علاقتي بسارة، سألني مَنْ تكون سارة، فذكَّرتُهُ بها، كانت تدرس معنا، لكنه لم يُركِّز كثيراً. هزَّ رأسه، وسأل إذا ما كانت سارة تسكن في الإقامة الجامعية للبنات، فقلتُ إنها في مدرسة البيطرة بواد السمار.

"ربّك! جيت تمشي من واد السمار ف الشتا هذي!" قال لي بصوتٍ عالٍ وهو يضحك.

تجاهلتُ كلامه ونظرات الزبائن من حولنا. كانوا عصبيّينْ وحزينين، تساءلتُ إذا ما كانوا مثلي يخافون أن يلتقوا أحد معارفهم أو أقاربهم وهم يخرجون من المحلّ وفي أيديهم أكياس سوداء، تشبه أكياس القمامة، يحملون فيها زجاجات الكحول.

بعدها قاد مجيد السّيّارة حتّى عمارة ضخمة، قال إن اسمها هو AeroHabitat، في حَيّ تيلملي. طلبَ منّي أن أفتح الصندوق الخلفي، حيث وضعْنا أكياس الكحول، وأكياس طعام كان قد اشتراها، وأُرافق سيليا إلى شقّة أصدقائهم فوق، وسيلتحق هو بنا بعد أن يركن

السّيّارة. حملتُ الأكياس، وتركتُ حقيبتي في صندوق السّيّارة، قلتُ لنفسي إني سأعود معه لاحقاً.

رافقتُ سيليا في المصعد، الذي وجدْنا به عدداً من السّكّان برفقةِ رجلٍ أسود جالسٍ فوق كرسي، ويأخذ على كل راكب 10 دينار. تجمّدتُ في مكاني، وتجاهلتُ الراكبين. خفتُ أن يُسمَع صوتُ زجاجات الويسكي. لا أعلم لماذا، لكنّي خفتُ.ثمّ أنا لم أركبْ مصاعد كثيرة في حياتي، العمارات في الرغاية ليست عالية، والعمارة الوحيدة العالية كانت قد انهارت في الزلزال. وصلْنا إلى الطابق العاشر، خرجْنا، وسرتُ خلف سيليا نحو مصعدٍ آخر، أصغر حجماً، ركبْنا وحدنا، وطلبتْ منّي أن أضغط على زرّ الطابق الـ 21.

حملتُ أكياس الأكل والويسكي فيما احتضنتْ سيليا كيساً ورقياً به زجاجة فودكا. فكّرتُ أنها أوّل مرّة أركب فيها مصعداً مع فتاة جميلة كبيرة الصدر، تحضن زجاجة فودكا. فكّرتُ في الاحتمالات الممكنة كلها، ثبتُّ نظرتي على الأرضية، حمراء متآكلة، يظهر من تحتها الهيكل الحديدي للمصعد. لكني بقيتُ هادئاً، وبقِي احتمال توقّف المصعد، ونزع قميص وسوتيان سيليا وامتلاكها لدقائق - أو أيّ فعل جريء وخارج السياق - مثل حرف صامت في آخر الكلمة، لا يُنطَق أبداً.

"t'es dans quelle année ?(*)"

سألتْني سيليا بالابتسامة نفسها بعدما فرغَتْ من مراسلة أحدهم على هاتفها.

"première...première année(**)"

---

*) أنتَ في أيّ سنة؟

**) أولى... سنة أولى.

أُجيبها بعد أن أبتلع ريقي.

هزَّتْ رأسها محافظة على نصف الابتسامة نفسها، قدَّرتُ أنّ هذا هو أقصى اهتمام يُمكن أن تُوليه لشخص محشور معها في مصعد. نظَرَتْ نحو الأرضية، فبدأتُ أنا بتأمُّلها. خدّاها لا يزالان حمراوَيْن. وما إن وصلْنا إلى الطابق الأخير حتّى تنطلق سيليا كَمَنْ يهرب من المصعد. أسألها:

"وأنتِ؟".

لكنها لم تسمعْني، سارت في الرواق المظلم الطويل وأنا خلفها، على يميننا أكتشف لأوّل مرّة في حياتي منظر المدينة من فوق. أتوقّف عن السَّيْر وراءها. أضع الأكياس على الأرض. كان الهواء بارداً وبعض قطرات المطر لا تزال عالقةً به. كانت الأضواء قويّة على طول الساحل فقط، الطريق السريعة التي تعبر أمام الميناء وتدخلها، أمّا بقيّة المدينة، تحت العمارة، فكانت مثل جمرة كبيرة سوداء، اشتعلتْ فيها بعض البيوت والشوارع فقط، وتنتظرُ نفخة هواء حتّى تشتعل بالكامل، وتحترق. هكذا كانت الجزائر تحت قَدَمَي وأنا واقف في الطابق الأخير لتلك البناية العملاقة.

أخرجتُ علبة السجائر، وأشعلتُ سيجارة بعد أربع محاولات، بسبب الريح. سمعتُ سيليا تُنادي باسمي من آخر الرواق، أشرتُ أني سآتي، كانت تقف مع فتاة أخرى في إطار الباب المضيء. الدخان كان يختفي ما إن أنفخه، فكّرتُ أن هذا ما يشعر به مَنْ يقف في مقدّمة سفينة ضخمة. البحر لم يكن واضحاً. تداخَل مع سواد السماء.

***

في الداخل كان الأمر مختلفاً. تركوا الباب مواربا، ولمّا دخلتُ،

وجدتُ أضواء السقف كلها مطفأة، فقط الأباجوارات - عددٌ كبير من الأباجوارات - كانت تبعث ضوءها الدافئ. الشّقّة كانت صغيرة. المطبخ صغير، على شكل بار أمريكي على اليسار، أمّا المساحة المتبقّية - بين الباب وباب الزجاج المقابل للبلكون - فقد انتشر فيها أثاث الصالون. على اليمين، جنب البلكون، كان هنالك درجٌ يصعد إلى طابق علوي، حيث توجد الغرف - أو هكذا خمّنتُ.

من خلف البار، اقتربتْ منّي الفتاة التي كانت تقف مع سيليا، وابتسمتْ وهي تمدّ يدها، لتأخذ الأكياس التي كُنتُ أحملها مُردِّدةً كلمة "مَرْحَبَا" بلهجة مصطنعة. وضعتُ الأكياس على الرخام، وقلتُ:

"ميرسي..."

"إيمان... enchantée."

مدّتْ جذعها من فوق الرخام، وسلّمتْ عليّ، زوج بوسات، حرّكتُ وجهي فقط دون أن أقول شيئاً، لكني سمعتُ بوساتها الصغيرة بالقرب من أُذُنَيّ.

كانت سمراء، تلبس قميصاً أحمر داكناً، من الصوف، ملتصقاً بجسدها، كانت رقبتها طويلة وجميلة، تناثرت عليها بعض الخانات، وكانت تضع على شَفَتَيْها اللون الأحمر نفسه لقميصها. عموماً، ومن دون تفاصيل، كانت جميلة. ظلّتْ تسألني إذا ما كُنتُ صديق مجيد؟ قلتُ نعم. إذا ما كُنتُ لا أزال أدرس؟ قلتُ نعم. وتمنّيتُ ألا تسألني عن سنّي. لم تفعل.

فهمتُ من إيمان أن هناك حفلة عيد ميلاد ما. لكنهم لا يزالون

في انتظار صاحبة عيد الميلاد. نزعتُ الجاكيت الذي كُنتُ ألبسه، كان الجميع يلبس ثياباً جميلة ومَكويّة بعناية، كُنتُ الوحيد الذي أتى بثياب اليوم. لكني لا أُبالي لمثل هذه الأشياء. جاءتْني حفلة على غفلة. تفقّدتُ هاتفي، 26 اتّصالاً من سارة، واتّصالان من ماما. أعدتُهُ إلى جيبي.

"واش تشرب؟" سألتْني إيمان.

"قازوز... كاين قازوز؟"، قلتُ دون أن أبرّر أو أضيف شيئاً.

لم أكن أعرف أحداً، كان هنالك حوالي 10 أشخاص. ثلاثة في البلكون، وسبعة تقريباً في الداخل. سيليا كانت تجلس مع فتاة سمراء، وولد يقفُ وهو يرسمُ تعابير صارمة على وجهه. كأنّه ينتظر مَنْ يصوّره. كان هذا كله غير مألوف. أفرغتُ لنفسي كأس فانتا برتقال، الفانتا تُذكّرني بالأعراس، كانوا يوزّعونها على الأطفال دائماً. لاحظتُ الكؤوس في أيدي أصحابها، أغلبهم كان يشرب الكحول.

اكتشفتُ أن هناك إطلالة أخرى، أقلّ اتّساعاً من الأولى، على المدينة، عبر البلكون. أنا شخص يُحبّ البلكونات. خطوتُ للخارج، وابتسمتُ للبنتَيْن والولد الجالسين حول طاولة خشبية صغيرة. كان البلكون محفوفاً بالنباتات والزرع. لكن البرد كان شديداً، وضعتُ كأسي على قاعدة دربوز الحديد للبلكون، ودخلتُ لألبس الجاكيت. عندما عُدتُ قالت لي إحدى الفتاتَيْن، كانت تجلس في الظلام لم أتبيّن ملامحها جيّداً:

"هكّا وطاح الكاس؟"

فاجأتْني. فكّرتُ قليلاً. لثانيَتَيْن. ثمّ قلتُ:

"لو كان طاح يتكسّر...".

"... ويقتُل كاش واحد!"

"كاس واحد ما يقتلش جاب لي ربّي." قلتُ وأنا أفتعلُ ابتسامة، تغطّي ارتباكي.

"صح، لازم بزاف..." قال الولد موافقاً.

هززتُ رأسي، دون أن أتجّه نحوهم بجسدي كله، ودون أن أعطيهم ظهري. حتّى لا أخترق مثلّثهم البلكوني، ولا أنفي احتمال الجلوس معهم. كان الولد يلبس جاكيت جِلْد، وجهه واضح الملامح، شَعْره طويل وأسود، وارتسمَ فوق فمه بداية موستاش. أمّا الفتيات، فكُنّ من دون جاكيت، تماماً مثل سيليا، كأنّهنّ لا يبردنَ. في اللّيسي كان الأولاد يقولون إن درجة حرارة جسد الفتيات أكبر من درجة حرارة أجسادنا، لكنّي لم أُصدّقهم، كانت تلك خرافة أخرى عن شبق الفتيات غير المُنقطع.

حاولتُ الإنصات لحديثهم، فهمتُ أن الفتاة الثانية، التي لم تُكلّمني، كانت مهندسة معمارية أو شيئاً من هذا القبيل، وكانت تُحدّثهم عن جسر يعبرُ على عمارة، لا يعبر فوقها بمسافة، بل عليها مباشرة، العمارة - الجسر هكذا كانت تُسمّيها. قالت إنها تقع في مكان قريب. تذكّرتُ لقطة من فيلم جزائري، فيلم حديث نسبياً، عنوانه فيفا لالجيري، كُنتُ قد شاهدتُهُ في سنوات اللّيسي، حيث تظهر هذه العمارة - الجسر، لكني لم أعبر من أمامها أو فوقها يوماً، وتساءلتُ كيف صمدتْ خلال الزلزال، ولم تَنْهَرْ بالجسر.

التحقتْ بنا إيمان في البلكون. كانت تحمل كأس ويسكي. وقفتْ بجانبي، أشعلتُ سيجارة حتّى أكون متأهّباً لحديث آخر. الشعور بالذنب والتفكير في ماما كان قد تلاشى. عرفتُ أنها لا تعيش في الجزائر. تدرس في فرنسا. ماركتينغ. لا أفهم في هذه المواضيع كثيراً. تعيشُ في باريس منذ عامَيْن. تأتي مرّتَيْن في العام، لرؤية عائلتها وأصحابها. سألتْني أين أسكن؟ فأجبتُها، قالت إنها تعرف الرغاية، خالتها تملك عيادة طبِّيَّة هناك. زارتها مرّة واحدة، عبر القطار. تساءلتُ في نفسي لماذا لم ألتقِ أبداً فتيات مثل إيمان في القطار، رغم أني أركبه كل يوم؟!

الكل يعرف الرغاية بسبب عيادة طبيب ما هناك، في بعض المرّات، أشعر أن هذه البلدة مستشفى كبير من دون أسوار.

سألتُها عن حياتها في باريس. قالت إن الحياة هناك ليس بسيطة كما تبدو من بعيد.

"عمري ما رحت، ما علاباليش كيفاش دايرة الحياة، ما قلتش بلّي الحياة simple..." قلتُ بعد أن سحبتُ نَفَساً قصيراً من سيجارتي.

شعرَتْ إيمان أنّها تسرّعتْ في الكلام، راجعتْ نفسها في صمت، ثمّ قالت إن هذا رأي الأغلبية. ضمّتْ ذراعَيْها، ومسَّدتْ كتفها بحركة عصبية. قالت إنّ الحياة معقّدة قليلاً بين الجامعة والعمل الصغير الذي تقوم به في مكتبة عامّة، والدروس المسائية، لكنّها جميلة في العموم. أسألها عن الدروس المسائية، فتقول:

"des choses pour le C.V tu sais... des cours de contrôle de gestion, de comptabilité factorielle...(*)"

---

*) أشياء لـ CV أنتَ تعرف ... مراقبة التسيير ومحاسبة الفواتير.

لا أفهم شيئاً من هذا كله، لكني أهزّ رأسي.

أقول إني أدرس بيولوجيا. تسألني إذا ما كُنتُ أفكّر في السفر بعد الجامعة.

"ما علابالیش ... بالاك ...".

تقول إن الحياة في الجزائر صعبةٌ أيضاً. صعبة أكثر من باريس. أُحضِّر نفسي لسماع قائمة أكثر 10 أسباب تدفعكَ للهجرة، وأتذكّر سائق الطاكسي في واد السمار منذ أشهر. لكن إيمان تقول لي شيئاً مثيراً عن الجزائر:

"أنا نقولك c'est quoi le problème ici(*)، الناس مشي مشغولين هنا، مشي مزروبين، آلجي صامطة، واحد ما مشغول فيها، tu sens pas qu'il y'a une vie qui court(**)".

أفكّر في كلماتها، لكنها تنصرف إلى الداخل، تقول إن صاحبة عيد الميلاد جاءت. أقف على عتبة البلكون، أشاهد فتاةً تضع آخر اللمسات على غلاف برّاق لعلبة متوسّطة الحجم في الأعلى. في الظلام. ثمّ تنزل ببطء الدرج الخشبي. وفي الوقت نفسه، أشاهد الفتاة التي دخلتْ، مجيد كان قد وصل، لم أنتبهْ له، كان خلف البار يحضّر شيئاً، بينما ارتسمت حركةٌ من حول صاحبة عيد الميلاد، لم أكن قد عرفتُ اسمها بعد، نحيفةٌ، بشَعْر خشن، جمعتْهُ على شكل حبّة طماطم فوق رأسها. بشرتها حِنطية اللون، وجهها جميل، ويداها أيضاً، بقية الجسد اختفت وراء أصحابها الذين تناوبوا على عناقها.

---

*) سأقول لكَ ما المشكلة هنا.

**) لا تشعر أن هنالك حياةً تجري.

كُنتُ الغريب الوحيد في الحفلة فيما يبدو، وشعرتُ بالضيق والإحراج. مَنْ سيُقدّمني إلى الفتاة؟ كيف أُقدِّم نفسي؟ ماذا سأقول؟

***

لم أفعلْ شيئاً. بقيتُ في البلكون. وصل أناس آخرون، انصرف الولد والفتاة اللذان كانا يجلسان مع الفتاة التي كلَّمتْني. دخل آخرون إلى البلكون، تحرّكتُ إلى اليسار، بالقرب من فتاة الطاولة. جاء مجيد، كان يشرب ويسكي، قال لي بضع كلمات ذكورية عن علاقتي التي انتهت، أردتُ أن أقطعه، وأقول إنها لم تنتهِ بشكل "رسمي"، لكني سكتُّ مُبتلِعاً هذه الكلمة السخيفة.

مجيد يتحدّث بسرعة ووجهه كله يتحرّك معه، يداه أيضاً، السلسلة الذّهبيّة في عنقه تهتزّ. شخص لا يؤمن سوى بالحقيقي والملموس. لا يُضيّع وقته. وضع يده على كتفي، وربَتَ بلطف وهو يبتسم. كان يمُرِّر خبرته الحياتية إلى زميله السابق. لم يُعلِّق على كأس القازوز في يدي. عاد إلى الداخل. شعرتُ بالبرد فجأة، استدرتُ دون تفكير، وسألتُ الفتاة إذا ما كان يمُكنني الجلوس، قالت نعم. أخرجتُ هاتفي، فوجدتُ ماما تتّصلُّ بي. كانت الساعة قد تجاوزت الحادية عشر. وضعتُ كأسي على الطاولة، فجأة صار صوت الموسيقى والضحك والكلام عالياً ومسموعاً. دخلتُ إلى الصالون، كان مكتظّاً، تقاطعت نظرتي مع نظرة سيليا، فابتسمتْ لي، كانت ابتسامة حقيقية، بادلتُها الابتسامة نفسها، وخرجتْ إلى الرواق المظلم.

"آلو ...".

"خمس سوايع وأنا نعيّطلك!" صرختْ في أُذني. تخيّلتُها متمدّدة

في سريرها، تُجرّب الاتّصال بي، الضوء مطفأ، والإضاءة الزرقاء للتلفزيون ترتعش على الجدران الأربعة.

"ياك كتبت لك SMS، خلّيت التليفون يتشارجا...".

"عيّط، عيّط، ما تكتبليش SMS، هكّا ويكونوا خطفوك وكتبوا لي !SMS؟؟"

"يخطفوني ... يندبوا بيّا ... ما ! حبسي علينا الهدرات هذو. واش راكي؟"

"حوّس عليّا واش راني دوكا ... وقتاش تولّي؟"

"غُدوة نشالله."

"قبل الفطور، ولا مور الفطور؟"

"الرّح ... نيك حياتي ..." قلتُ بين أسناني بعد أن أبعدتُ الهاتف "مور الفطور مور الفطور، أيّا خلاص تصبحي على خير ما، خلاص ...".

"بصّح علاش ... اسمع ...".

"خلاص، راح نكوبي، خلاص ...".

"أنا ما نهدرش دوكا، غدوة نهدرو."

"أيواه ... غدوة نهدرو ... هيا بون نوي."

"بون نوي ... بالاك على روحك."

أغلقتُ التليفون. في الأخير، يعني، حتّى ماما كانت أُمّاً هليكوبتر.

وددتُ لو كُنتُ لا مبالياً بما يكفي حتّى أرمي التليفون، حتّى لا أشعر بالمرارة التي تصعد إلى صدري بعد كل مكالمة مع ماما. يقولون إن مَنْ يحطّم الأشياء والصحون بعد الغضب، يهدأ كلّما سمع صوت الارتطام. فكّرتُ أني لن أسمع صوت تحطّم التليفون حتّى لو رميتُهُ، فالشارع بعيد جدّاً.

أشعلتُ سيجارة، واتّكأتُ أتأمّل المدينة. انتبهتُ لمقام الشهيد على اليمين، كان صغيراً، يتلوّن بالبنفسجي والأخضر والأحمر .. وفكّرتُ في العمارة العالية التي سقطت في الرغاية لمّا ضرب الزلزال. كان اسمها الكانز، مثل الرَّقْم بالفرنسية Quinze.كان بها 15 طابقاً. سألتُ نفسي لماذا لم تسقُط هذه العمارة وعمارات عالية أخرى، بينما سقطت الكانز التي تبعد عن بيتنا مئة متر؟ كلاهما بنتهما فرنسا قبل الاستقلال، لكن الكانز غيّروا كثيراً في طابقها الأرضي دون رقابة حسب ما سمعتُ لاحقاً. أذكر تماماً كيف سقطت بالتدريج على مدى ثلاثة أيّام. تصدّعت الجدران في اليوم الأوّل. خرجتُ إلى الشارع مع ماما، ورأيناها تتمايل. أردتُ أن أبكي. الصراخ كان في كل مكان. ماما كانت تضغط على يدي حتّى لا أبتعد ولا يُفرّقنا الزلزال عن بعضنا. سيّارتنا كانت مركونة في موقفِ الحَيّ المجاور، قلتُ لها:

"هيا نروح للطونوبيل، بالاك ما نصيبوش الزلزلة ثمّا".

قالت لي إن الزلزال في كل مكان. قالت لي: "ما تخافش."

سكتُّ قليلاً، ولكن الدموع غلبتْني. رأينا العائلات تخرج من الكانز مثل النمل. أغلبهم لم يعد إلى شقّته بعد تلك الليلة، ووعد بعض المغامرين بالمال، إذا ما دخلوا وأنقذوا أوراقه ومدّخراته من الداخل.

ركعتْ ماما أمامي، وطلبتْ منّي ألاّ أخاف. قلتُ لها يجب أن نهرب، نترك كل شيء، ونهرب في القطار. كانت الساعة قد تجاوزت الثامنة ليلاً، وقالت لي ماما إن القطارات تُغادر قبل الزلزال. كانت تقصد أن القطارات لا تعمل بعد الساعة السابعة والنصف ليلاً، لكني فهمتُها دون أن تشرح. كُنتُ أسمع صوتَ الصراخ والبكاء وسيّارات الإسعاف في كل مكان، تخيّلتُ القطارات تُغادر مُبتعدةً مثل قطيع حيوانات معدنية ضخمة، تاركة الناس يواجهون الزلزال. كانت دموعي قد جفّت، والظلام غطّى كل شيء. كانت ليلة طويلة.

" ça va commencer(*) !"

قال صوتٌ من شقٍّ الباب، واختفى.

رميتُ السيجارة، وملأتُ صدري بالهواء، ودخلتُ. كانوا يُغنُّون ويُصفِّقون حول كعكة فواكه كبيرة. فيما كانت الفتاة راكعة أمام الطاولة، الأضواء مطفأة، وضوء الشموع ينعكس على وجهها الجميل، ويرسم على السقف ظلالاً شاحبةً - لأيادي الأصدقاء ورؤوسهم - تُشبهُ في حركتها عبوراً بطيئاً لسربٍ من الطيور. 23، هذا هو الرَّقْم الذي حملتْهُ الشموع المغروسة في الكعكة. كُنتُ جائعاً، تذكّرتُ أني لم آكل شيئاً منذ ساعات.

نزعتُ الجاكيت، لم أجد مكاناً شاغراً لتعليقه. وضعتُهُ كما اتّفق، وبعد إطفاء الشموع والتصفيق الأخير، أشعلتُ ضوء الأباجورة الكبيرة. لم يعترضْ أحد. فتشجّعتُ ووقفتُ في الحلقة، كان الجميع يسلِّم عليها من جديد، قرأتُ اسمها على الكعكة WISSAL. وقفتُ منتظراً

---

*) سنبدأ.

دوري في العناق والكعكة. شعرتُ بتغيّر في مزاجي. كان الهاتف مغلقاً، وكان هذا جيّداً.

"وصال... Joyeux anniversaire..."(*) قلتُ، ثمّ قدّمتُ نفسي وأنا أبتسم ببلاهة، لم أعُد أهتمّ إذا ما كانت تعرفني أو لا، عانقتُها، لم ترتبكْ، بادلتْني عناقاً حارّاً، وشكرتْ مجيئي.

عبرتُ مباشرة إلى سيليا التي كانت تُقطّع الكعكة، أخذتُ قطعة كبيرة، سألتْني إذا ما كُنتُ أقضي وقتاً طيّباً. غمزتُ وقلتُ نعم.

الفتاة في البلكون كان اسمها نسرين، عرفتُهُ أخيراً. لم تكن تفعل شيئاً سوى الشرب. رأيتُ ألواناً كثيرة في كأسها. أنا لا أعرف شيئاً عن الكحول، لكني أسمعهم يقولون إنه لا يجب الخَلْط بين أنواع كثيرة في سهرة واحدة. أجلس في الكرسي نفسه، وآكل قطعة الكعك والفواكه بجنبها.

سألتْني إذا ما كان مذاق الكعكة جيّداً، قلتُ نعم.

"تحبّي تدوقي؟"

"لالا ...".

"نجيب لك تاكلي؟" سألتُها متوقّعاً الإجابة، ولكني غالباً ما أبالغ في الوُدّ تُجاه شخص لا أعرفه حتّى يرتاح لي.

"أوه... لالا، صحّة، رحت معاهم كي شراوها، ما عينيش ناكل." قالت مبتسمة. كانت ابتسامتها حزينة.

---

*) عيد ميلاد سعيد.

"تسكني هنا أنتِ؟" تشجّعتُ، وسألتُها.

"هيه ... تقدر تقول ... مشي ف الباطيمة هذي، بصّح ف la même rue ...[*] بصّح مشني من هنا، من دزاير ... أنا من قسُمطينة."

"آه، قسنطينة!" لم أزُرْ قسنطينة في حياتي، كُنتُ أراها في الصور فقط.

"قسنطينة oui".

أردتُ أن أقول شيئاً، لكني لم أكن أعرف عن المدينة سوى صور جسورها المعلّقة وموسيقى المالوف وحلوى الجوزية التي كانت ماما تأتي بها من عند زميلة لها في البنك.

عادت الفتاة إلى صمتها، كانت تنظر إلى الليل عبر البلكون، ثمّ إلى كأسها، ولا تتحرّك سوى لتملأه كلّما فرغ. بدَت غير راغبة في الكلام، لم أكن أعرف مَنْ هي، كُنتُ الغريب الوحيد في الحفل. دخلتْ سيليا البلكون بعد قليل لتُدخّن، كان مزاجها قد تحسّن. شعرتُ أنها صارت تكلّمني وتنظر نحوي بوُدٍّ أكبر، يبدو أنها نسيتْ دخولي السّيّارة ونصف صدرها خارج القميص، سألتْني إذا ما كُنتُ قد تعرّفتُ على نسرين، وأشارت للقسنطينية، قلتُ نعم، وابتسمتْ.

وقفتُ مع سيليا تاركاً مكاني، أشعلتُ سيجارتها، وسيجارة لي، وبقيْنا نُدخّن. سألتُها إذا ما كانت قد زارت قسنطينة، فقالت نعم، في إطار معرض سيّارات، يبدو أنها كانت تعمل في وقت الفراغ كمضيفة في المعارض، تلبس تايورات قصيرة، وتضع المكياج، وتقفُ لتجذب المتفرّجين والزبائن.

---

*) الشارع نفسه.

"واش عندهم؟ عندهم الزريرة بنينة... وعندهم الرشتة تاع الظفر... عندهم les ponts(*) تاني، بصّح ما يصلحوا غير للطونوبيلات ولّا للناس اللّي يرموا رواحهم..." ثمّ نظرت نحو نسرين، وقالت: "ولاّ إنتو تقولوا يطَيْشوا مشي يرموا؟"

"قودي."

"أيوه، ويقولوا كلمة قوّد و قودي نورمال قدّام دارهم وباباهم."

ضحكتُ مع سيليا حتّى صرْنا نسعل من الدخان والبرد، فيما تجاهلتْنا نسرين مُواصلةً الشرب من كأسها.

سألتُ سيليا عن مجيد، فقالت إنها لا تعلم أين هو، ربّما هو في مكان ما بالداخل، وربّما قد غادر. صدمتْني الإجابة، لم أفكّر في مكان أقضي فيه ليلتي، قلتُ لنفسي إني سأترك الأمر لآخر الليل، وأسأل مجيد كي أبيتَ عنده. ثمّ تذكّرتُ حقيبتي التي تركتُها في صندوق سيّارته.

"وين راح؟ ما عنديش وين نروح أنا، وخلّيت عنده دوزاني ف الطونوبيل!"

"ما تتقلقش، ساهل ساهل..." قالت سيليا وهي تنفث الدخان.

***

اختفى مجيد. صار الجوّ بارداً أكثر فأكثر مع التّقدّم في الليل، نصف الحاضرين غادروا، ولم أكن أدري ماذا أفعل. نسرين غرقتْ في الصمت،

---

*) الجسور.

بقيتْ تشرب. وبقيتُ أراقب حركة سيليا داخل الشّقّة، كانت الشخص الوحيد الذي يعرف اسمي، على الأقلّ.

دخلْنا إلى الصالون، وأغلقْنا باب البلكون خلفنا. كُنتُ أعطس، تذكّرتُ رطوبة الصباح في محطّة القطار، حقيبتي لم تكن معي، وطريق العودة سيكون طويلاً. كان عليّ أن أجِد مجيد أيضاً، آخذ رَقْم هاتفه، حتّى لا يُضَيِّع الحقيبة.

نسرين كانت تتمايل، كانت سكرانة، كان ينقصها كأس حتّى تبلغ مرحلة تمشي وتطيح. اتّكأتْ على الكرسي الأوّل الذي صادفها، ثمّ اتّجهتْ متعثّرة في الزربية إلى التواليت، سمعْناها تتقيّأ، كانت قد تركت الباب مفتوحاً. ركضتْ إيمان خلفها، سمعتُها تسألها إذا ما كانت بخير؟ لم أسمع جواب نسرين، لكنّ هذا كله كان إيذاناً بنهاية السهرة.

سارتا نحو حوض المطبخ. ساعدتْها إيمان في غسل وجهها، كان شاحباً، وكُنتُ أراه للمرّة الأولى في الضوء. وجهٌ صغير، وعينان سوداوان مثل ثُقبَيْن عميقَيْن، فمها صغير أيضاً، أعدتُ تخيُّل ابتسامتها في رأسي. شَعْرها كان أسود، مربوطاً في ذيل حصان طويل، لكنه كان ملتصقاً بوجهها المُبلّل، وغير مُرتّب. الشّابّ والفتاة اللذان كانا معها في الطاولة، غادرا منذ مدّة.

سيليا جلستْ أمامي، وقالت إنّها يجب أن تجد مكاناً لتبيت فيه، هي تسكن في المحمّدية، وكان من المفترض أن يُوصِلَها مجيد، لكنه أغلق هاتفه، واختفى. كانت نصف سكرانة أيضاً، أو هذا ما بدا لي، خاصّة أني لم أُجرِّب السُّكْر يوماً. كُنّا في المشكل نفسه، لكنها كانت تعرف النّاس هنا.

ساعدتُ نسرين في الجلوس، سألتُها إذا ما كانت لاباس، هزّتْ رأسها مبتسمة. كانت تبدو حزينة. سيليا، على يميني، كانت تتّصل برَقْم مجيد، لكنْ، من دون فائدة. كُنتُ أسمعها تشتم.

"كلب ... حمار ... fils de pute(*)... عطّاي ..."، ثمّ بدأت تُكلّم نفسها - أو تكلّمني، لا أدري - بخصوص ضرورة إيجاد مكان لقضاء الليلة.

كان الجميع قد غادر الآن. بقيتْ إيمان وحدها. كانت واقفة في إطار الباب المضيء تماماً مثلما استقبلتْنا. ثمّ عادتْ نحونا، توجَّهتْ بالسؤال إلى نسرين أوّلاً:

"ça va?(**)"

"لاباس ..."، قالت نسرين وهي تتنفّس ببطء، كُنتُ أتخيّل الحالة التي كانت تمرُّ بها، بعد القَيء، راحة خادعة، لا تلبث كي تتحوّل إلى دوار مزعج.

"ما شكيتش نصيبو طاكسي دوكا، زعما تقدري تروحي وحدك للدار، تحبّي تقعدي هنا معليش؟"

"آها... c'est pas la peine(***)..." ثمّ نظرتْ نحونا "عندكم وين تباتوا؟"

"رانا نستناو مجيد!" ردّت سيليا مقاطعة.

---

*) ابن قحبة.

**) هل أنتِ بخير؟

***) لا داعي لذلك.

"ما شكيتش يجي ..." قلتُ وأنا أنظر في الزربية التي يجب أن تُغسَل في غاراج غسل السّيّارات حتّى تعود نظيفة.

عبرَ الغرفة صمتٌ مشحون. قبل أن تنطق نسرين:

"تقدروا تجوا عندي، نسكن هنا برك، ورا الpont(*)."

"ils peuvent rester ici(**) ..." قالت إيمان مُتحدّثة عنّا بضمير الغائب، كأننا لسْنا في الغرفة.

"كيف كيف؟ يجوا معايا خير، نخلّوك تفرزي الدار بعقلك."

تمّ الأمر إذاً. أغلقتُ الجاكيت، ولبستْ سيليا معطفها الذي ظلّتْ أزراره العلوية مفتوحة، بسبب حجم صدرها. سلَّمْنا على إيمان، وخرجْنا إلى الرواق الطويل. سيليا كانت تُغالب رأسها - وصدرها ربمّا - حتّى لا تسقط، كان يظهر عليها التعب أكثر من نسرين. رأيتُ الجزائر، مرّة أخرى، مثل الجمرة تحت البلكون العالي. أغلقتْ إيمان الباب، وانسحب الضوء. كانت نسرين تحمل معطفها في يدها، وعادت إلى ذهني مقولة "البنات ما يبردوش"، فكّرتُ في أني سأقضي الليلة مع فتاتَيْن، تعرّفتُ عليهما صدفة، لم أكن قد نمتُ مع فتاة من قبل. لم تتطوّر الأمور إلى هذا الحدّ من قبل، ولا أعلم إذا ما كان سيحصل شيء أم أني سأنام على الأريكة في الصالون. ربمّا كانت نسرين تسكن أستوديو، من دون صالون. غرفة واحدة. سرير واحد. أفكار عديدة عبرت رأسي، أردتُ التدخين بشدّة، مددتُ يدي نحو العلبة في جيبي، فوجدتُها فارغة. خَرَا. وقفتِ الفتاتان تنتظران المصعد، ووقفتُ أنظر مرّة أخيرة للمدينة، البحر كان واضحاً، أو ربمّا تخيّلتُهُ كذلك.

---

*) الجسر.

**) يستطيعان البقاء هنا.

في المصعد، كانت نسرين تتّكئُ على كتف سيليا، تخيّلتُها تبكي عندما تكون وحيدة، تنزع ثيابها، وتنهار على السرير. تمنّيتُ ألّا تفعل ذلك عند وصولنا إلى بيتها. ربّما كانت تُحبّ أحدهم، أو ربّما تركها أحدهم، لا يدري الواحد لماذا يبكي الناس ويسكرون ويتقيّؤون في الحفلات عموماً. كُنتُ من دون تجربة في هذا المجال. وصلْنا إلى الطابق الأرضي، الليل كان بارداً. استدرْنا على اليسار، اقتربتْ نسرين منّي، وشبَكَت ذراعها تحت ذراعي، كانت المرّة الأولى التي تلمسني فتاة منذ بداية السهرة. أحسستُ بعضلاتي تتشنّج، ثمّ بدأتُ أتعوّد بعد بضع خطوات. مررْنا بغرفة زجاجية ضخمة، تحوي عشرات - أو مئات - صناديق البريد، كانت تابعة للعمارة. سألتُ سيليا إذا ما كان عندها دخان؟ فقالت لا، ربّما يجب أن نشتري علبة جديدة. كُنتُ الأصغر في المجموعة، وتمنّيتُ ألّا أُسْأَل عن عمري.

سرْنا أمام عشرات السّيّارات المركونة. تقدّمْنا في الليل. كُنتُ أمشي في ذلك الطريق للمرّة الأولى. كانت تلك ليلة المرّات الأولى كلها. كُنتُ سعيداً، رغم سارة ورغم الحقيبة ورغم ماما. لم نجد محلّ تبغ وجرائد مفتوحاً، كانت الساعة قد تجاوزت منتصف الليل. وعندما وصلْنا إلى شبه محطّة بنزين صغيرة، بدا لنا ذلك الجسر. كُنتُ متحمّساً لأراه، لكني كُنتُ أمشي ببطء بسبب خطوات نسرين. سيليا كانت سكرانة الآن، تسبقنا بخطوَتَيْن، وتسير كالنائمة. اجتزْنا الطريق نحو الرصيف الأيسر للجسر. توقّفْنا قليلاً، ومددتُ عنقي لأشاهد العمارة تحت الجسر، شعرتُ بشيء في صدري، مثل السيجارة الأولى. فعلتُ ذلك في الحدّ الذي يفصل الجسر عن الطريق، لأن الجسر كان مَحميّاً بحواجز حديدية، كان ذلك قبل أن يُعلّقوا فيه كادنات الحُبّ، وقبل أن يصبغوه بألوان قوس قزح. كان ذلك قبل سنوات بعيدة نسبياً. سيليا قالت إنها

وجدت سيجارة في حقيبتها، أشعلَتْها واتّكأتْ على الحاجز تُدخِّن، كان معطفها مفتوحاً، وصدرها نافراً، لم تكن صاحبة مجيد، هكذا فهمتُ في تلك اللحظة، كان الجميع يلاطف الجميع، وينام مع الجميع، لم يكن هنالك شيء اسمه علاقة وحُبّ. تمنّيتُ ألا تسألني عن عمري. اقتربتُ منها، اقتربتُ حتّى صار بيننا مسافة لا تتعدّى الشبر، مددتُ يدي، وأخذتُ السيجارة، وفي تلك اللحظة، صرختْ في وجهي:

"آآآآآ ...".

لم أفهم. تراجعتُ خطوةً إلى الوراء، لكنها دفعتْني بيدها، فاستدرتُ لأرى نسرين تُحاول تسلُّق الحاجز الحديدي على الرصيف المقابل. ركضْنا عبر الطريق الذي كان خالياً. كان الحاجز يتجاوز المترَيْن بسنتمترات قليلة. وكانت نسرين تُغالب كي تتمكّن من تثبيت يَدَيْها أعلى الحاجز. مدّت سيليا يدها تجذبها من قَدَمها، لكن نسرين تركت فردة حذائها الرّياضيّ تنزلق من قَدَمها في يد سيليا، وصرخت من الألم وهي تُحرّك يدها في الهواء.

انتبهتُ إلى أن أعلى الحاجز مُدبّب بأشواك معدنية في بعض المواضع.

"نسرين ... اهبطي ... وشبيك ...؟!"، كانت سيليا تصرخ مذعورة.

كُنتُ لا أزال أُمسك السيجارة في يدي. شعرتُ بالتعب والحَيْرة. نظرتُ إلى نسرين، كانت تتشبَّثُ بالسياج الحديدي مثل قِردة، في وضعية أقرب للجنين، تخيّلتُها تسقط بعد لحظات. لم أفهم ماذا كانت تريد أن تفعل، هل ستنتحر؟ ينتحر الناس هنا أيضاً. يقفزون من الجسر.

رميتُ السيجارة، واقتربتُ من نسرين، أمسكتُها من حوضها. نسرين فتاة نحيفة. جذبتُها بكل قوّتي، بدأتْ تصرخ وتشتم وهي تشبكُ يَدَيْها بقوّة في السياج:

"أطلِقي يَدَيْكِ ... أطلِقي يَدَيْكِ ..." كرّرتُ الكلِمَتَيْن دون أن أصرخ. تحدّثتُ بهدوء كرجل إطفاء محترف.

"أطْلِقي ..."، قالت لها سيليا بنفاد الصبر.

ألصقتُ وجهي بظهر نسرين، وأحطتُ حوضها بذراعَيّ. كانت بعيدة عن الخطر، لكننا كُنّا في وضعية سخيفة ومخيفة. ماذا لو قفزَتْ؟ كانت العمارة عالية فعلاً. قاتلة. رأيتُ سيليا تتحرّك من حولي، أدرتُ وجهي، فرأيتها تحمل السيجارة التي كانت لا تزال مشتعلة. عادت إلى مكانها على يساري، وقالت:

"رانا قاعدين."

كانت نسرين صامتة. تتنفَّس بقوّة. وتتمسّك بالسياج كَمَنْ يهرب من طوفان يعبر تحته. وفي لحظة ما، ودون أن تنطق بكلمة انفجرَتْ بالبكاء، لم يكن بكاءً عادياً، بل صوتاً يُشبه صوت حيوانٍ يُحتَضر. حيوان أُصيب بجرحٍ بليغ، نَزَفَتْ منه حياته ببطء. جذبتُها بقوّة مستغلاً الفرصة. لكنها كانت قد تركت السياج، كانت خفيفة، فلم أتمكّن من التوازن، بسبب قوّة الشَّدِّ، تراجعتُ إلى الخلف، وسقَطْتُ من على الرصيف، وسقَطَتْ هي بجانبي. تكوّمتْ على نفسها، وواصلت البكاء. شعرتُ أن الليلة ستكون خَرَا أكثر ممّا هي عليه. كُنتُ ممدّداً على الرصيف. بجانبي فتاة سكرانة تبكي، وتُقابلني فتاةٌ أخرى - سكرانة أيضاً - تُدخّن آخر سيجارة نملكها. كان البرد قاطعاً، والليل يتقدّم

ببطء. فكّرتُ في حقيبتي. في سارة. في يوم الغد. الجمعة وضجرها. هدوء المدينة الجنائزي والطُّرُقات الخالية ومكبّرات صوت المساجد مثل ذبابات عملاقة في الأفق. الجمعة، حيث ستكون المحلّات كلها مقفلة قبل الصلاة وبعدها، وحيث ستصل الحافلات والقطارات كلها متأخّرة.

الشركةُ الوطنيةُ لانتظارِ القطاراتِ

1

في نهاية سنة 1993 كُنتُ أعمل في المؤسّسة الوطنية للفنون المطبعية، وِحدة مدينة الرغاية، في المنطقة الصّناعيّة لهذه البلدة الصغيرة. كانت الرغاية قد صارت منذ سنوات قليلة آخر بلدية تلتحق بالعاصمة من جهة الشرق، آخر حصن شرقي. بلدة حدودية تقع وسط خطِّ القطار (الجزائر - بومرداس)، كانت امتداداً سُكّانيّاً للمنطقة الصّناعيّة الواقعة بينها وبين بلدة الرويبة، الأكبر مساحة والأجمل من حيث العمران.

عندما زرتُ الرغاية أوّل مرّة كانت بدعوة من صديق يعمل في شركة وطنية للبناء، وتحمل اسماً مُختصراً غريباً كعادة هذه الشركات سِنِسْتَال. كان ساكناً جديداً، في حَيّ بنَته شركته أمام الملعب البلدي، وثانوية ومقبرة نصرانية صغيرة بسور واطئ. "عُمرانٌ وظيفي"، هكذا قُلتُ لنفسي بعدما رأيتُ شقّته الصغيرة. غرفتان وصالة، مطبخ وحمّام، ونوافذ طويلة وضيِّقة، بالكاد يدخل منها الضوء. شقّة بُنِيَت لوظيفة مُحدّدة: إسكان عائلة صغيرة مطابقة لمواصفات العائلة المثالية في برنامج الحكومة. لكن الناس في ذلك الوقت لم يكونوا مهتمّين كثيراً بما تقول الحكومة، ولا بعدد الغرف في الشّقّة. حُفِرت الأراضي الفارغة حول بلديات ضواحي الجزائر، وصبّوا في أساساتها

الإسمنت والحديد، وانتظروها لتَنبُتَ وتتَّسِعَ للبشر الذين فاضَت بهم شقق وسط المدينة، وطردتْهم الأرياف.

2

قبل ذلك التاريخ بسنة، بدأتُ العمل في المؤسّسة. حصل الأمر بسرعة، مثل كل شيء في تلك الفترة. لا أتذكّر تحديداً ماذا كُنتُ أفعل قبلها. لكنني كُنتُ أقول للناس إنيّ أعمل بالصحافة. وبعد أشهر من النقاشات والخصومات والصراخ مع بابا، بعد أن شاهدْنا كلنا الوحشَ وهو يتقدّم نحونا، ويضرب في الناس عشوائيّاً، قال لي:

"البلاد ما راهيش مليحة وأنت راسك يابس... حبّس عليا رب الجُرنان هذا... عمّك عُمر صاب لك خدمة".

عمّي عُمر كان أقدم صديق لبابا. وهو مَنْ توسّط لي في المؤسّسة، لأصير محرّر كُتُب في المؤسّسة الوطنية للفنون المطبعية، والمعروفة باسم - مختصرٍ آخر- ENAG. لم يكُن متاحاً لي الرفض، خاصّة عندما سمعتْ مريم. كان المنصب إجابة صغيرة على مشكلتنا. كان علينا أن نتزوّج. أقمْنا العرس في قاعة حفلات بالقبّة، قاعة من دون تضاريس، تُشبه محطّة قطار كبيرة وباردة. مريم كانت تعيش مع أُمّها، والدها ميت، وإخوتها يعيشون في فرنسا. انتقلتُ للعيش معهما في الشّقّة. كانت شقّة جميلة في بناية عالية قديمة بشارع شكسبير بالمرادية. كُنّا على بُعْد مئة متر من قصر الرئاسة، نسكن في الطابع الخامس عشر، ونُشاهد الجزائر كلّها تحت أقدامنا عندما نقف في الصالة.

بدأنا في تسيير روتين الحياة الجديدة، هي في مكتب الدراسات الذي تعمل به، وأنا من مكتبي البارد على بُعْد 30 كلم. كان هذا

في سنة 1992، لم آخذ عطلة، كان عامي الأوّل. وعندما قُتِل الرئيس بوضياف في عنّابة، كُنتُ أنا في مكتبي أكمِلُ مراجعة مخطوط ترجمة أصل التفاوت بين الناس لجون جاك روسو.

شهورٌ من القراءات والمراجعات لكُتُب من عصر النهضة العربية وعصر التنوير، بعضها تجعلني بلاغته ولغته أشعر بالعطش، ولا مكان لأشرب فيه. البارات القريبة كانت في بلدة الرويبة، وأغلبها كان قد أغلق أبوابه، ولم أكُن لأخاطر بدخول أحدها في وضح النهار.

في بعض المرّات فقط كُنتُ أحمِل معي في المحفظة الجِلْدِيّة السوداء - التي تركها لي والدي مع سيّارته رونو 4 بيضاء - بعض عُلب البيرة، ألفّها جيِّداً في أوراق صحيفة، وعندما أصِل أضعها في البرّاد الصغير بمكتبي. محفظتُهُ تلك رافقتْهُ منذ أن بدأ العمل في مفتّشية التعليم بشارع محمّد الخامس. لم يحمل فيها يوماً أوراقاً أو ملفّات، فقط سندويتشات، سجائر زيادة وملابس داخلية تحسّباً لـ أمر طارئ، هكذا كان يقول تاركاً الغموض يحيط ببقية التفاصيل التي تبقى في منطقة مظلمة من تاريخه. المنطقة نفسها التي وصلتْنا منها أيضاً فتّاحة العلب والزجاجات المعدنية التي تحمل ماركة البيرة 33، وكذا الندبة العميقة في باطِن ذراعه الأيمن.

3

في ذلك الصباح الشّتويّ، كُنتُ قد خرجتُ من دون أن أشرب قهوتي. مُحرّك الرونو 4 كان يُصدِر صوتاً، يجعلها تُشبه نحلة بيضاء عملاقة تسير فوق الإسفلت. بززززززز. كان الطريق خالياً من السّيّارات تقريباً. كم كان عدد السّيّارات في الجزائر وقتها؟ الكاسيت الوحيد الذي

كان في راديو السّيّارة كان للهاشمي قروابي، كان عالقاً هناك منذ أشهر. عندما أفتح الراديو، يبدأ قروابي في الغناء: ما تشغل بالك/ بالحسابات تغيّر حالك/ شرع الله. قبل أن يصمت لثوانٍ، ويتحوّل صوته لصوت حيوان مُحتضِر.

ما إن ركنتُ السّيّارة في موقف المؤسّسة حتّى بدأ المطر في التساقط، وعندما دخلتُ إلى مكتبي حاملاً محفظتي وقهوة من الكافيتريا، رأيتُ عبر النوافذ الزّجاجيّة الكبيرة المطر رشراشاً، يُسوِّط النوافذ من الخارج، ويغسلها من ترابها وزقّ الحمام. كان صباحاً مُظلماً وجميلاً.

وجدتُ على مكتبي ظرفاً كبيراً. مخطوط كتاب لقاصٍّ تونسيٍّ، لم أسمع به من قبل: علي الدوعاجي. ومعه رسالة من أستاذ جامعي تونسي، عليها اسمه ورَقْم صندوق بريد جامعة منّوبة، تونس. كانت الرسالة عبارة عن مقدّمة لـ الأعمال الكاملة لعلي الدوعاجي. جلستُ لأتصفّح المخطوط، بضع صفحات فقط حتّى آخذ فكرة، فوجدتُ نفسي قد أكملتُهُ في أقلّ من ساعَتَيْن.

كان الكتاب من قِسمَيْن، الأوّل يضمّ قصصاً تحدث في تونس الثّلاثينيّات لكاتب صعلوك، والثاني عنوانه "جولة في حانات المتوسّط" يحكي قصّة الأديب المُعدَم بعدما ورث مالاً، وسافر في جولة حول مُدُن المتوسّط، تربطهم باخرة، تتنقّل من مرفأ لآخر. كانت القصص ممتعة، عكس المقدّمة التي كانت تحتوي على المعلومات اللازمة كلها حول حياة الكاتب وموته، إلا أنها كانت مُملّة، ومكتوبة بشكل سيِّئ. لكنها كانت مكتوبة على ورق أبيض ناعم جميل، لا يشبه الورق الذي كانت تستعمله المؤسّسات الوطنية وقتها، أصفر وخشن ورديء.

عندما وقفتُ من جلستي، سمعتُ صوت فقراتي العظمية، سرتُ حتّى النافذة الكبيرة وأنا أُحرِّك حوضي يُمنةً ويساراً، بقيتُ أنظر إلى سكك الحديد. بابي مغلقٌ كالعادة. كان الجلوس في المكتب وقراءة المخطوطات القديمة أهمّ من اللّفّ في ردهات ومكاتب "الشركة" كما يسمّيها العمّال. كانت الأحاديث كلها تدور حول بقايا توغّل الجبهة الإسلامية للإنقاذ المُحَلَّة وحزب الطليعة الاشتراكي المتفكِّك، في المنطقة الصّناعيّة. كانت تحدث أشياء غريبة وقتها، سلعٌ لا تخرج من المستودعات، وعمّال يُطرَدُون بلا سبب، ومؤسّسات وطنية تتحضّر لتُعلِنَ إفلاسها. كانت المنطقة الصّناعيّة تشهد آخر هزّاتها الأرضية قبل السكون التّامّ.

كُنتُ أفكّر في مريم. في يَدَيْها الطويلَتَيْن، الجِلْد الرقيق التي يظهر عليه زغب خفيف لا يُرى، والعروق الرقيقة البارزة على ذراعها. يداي في جيبي، أتنفّس بعمق متخيِّلاً ظهري العاري تحت أصابعها. قصّة الدوعاجي في إسطنبول ذكّرتْني بمريم، البنت التي التقاها في مطعم قديم مظلم تشبه مريم، عندما قال إنّ عينَيْها كبيرتان، ويحدث أن تسهو لثوانٍ، وتفتحهما كَمَنْ رأى شبحاً أمامه. هنالك أيضاً تلك الحركة العصبية في القبض على منشفة المطبخ بعد الانتهاء من غسل الصحون - كأنّ أحداً سيأخذها منها - ثمّ إعادة مسح اليَدَيْن وتمريرهما على الرخام. مريم تفعل هذا أيضاً.

4

عندما عُدتُ إلى البيت في المساء، وجدتُها جالسة في الصالة، تنظر إلى أضواء المدينة. نصف الجدار الرابع للصالة زجاج، مثل مكاتب المؤسّسة، ولكنْ، عوض الساحات التي تتراكم فيها الخردوات الصدئة

والحشائش التي تعبرها سكك الحديد مثل ثعابين معدنية عملاقة، كُنّا نرى من شقّتنا الجزائر تُشعِل أضواءها كل ليلة.

والدة مريم كانت في غرفتها تتابع قناة فرنسية، تعرض أفلام أعياد الميلاد، وعشرات الإعلانات الملوّنة والثلوج البيضاء - أبيضَ من الورق التّونسيّ - تغطّي الناس والسلع. عندنا لم يكن هنالك ثلج، ولا مطر حتّى، فقط ريح باردة.

انسحبتُ إلى غرفتنا لأُغيِّر ثيابي، فلحقتْ بي مريم. سألتْني عن يومي في العمل، قالت إنها عادت إلى البيت بعد نصف يوم، وإن عشاء اليوم دولمة. اقتربتُ منها، لأُقبّلها، حاولتُ أن أُثبّتها أمامي بوضع يَدَيّ على حوضها، لكنّها تراجعت نحو المطبخ وهي تبتسم.

المرّة الوحيدة التي لم تهرب فيها وهذه الابتسامة على وجهها، كانت عندما دخلتُها أوّل مرّة. كان ذلك في مكتب الهندسة الأوّل الذي كانت تعمل فيه. رافقتُها إلى هناك في عطلة أسبوع ممطرة، لتجلب أوراقاً كانت نسيتْها، وكان المكان فارغاً. رفعتُ ثوبها، وأسندتُها على المكتب، كان مكتباً ذا سطح خشبي قديم بأدراج كبيرة وأرجل معدنية، كُنتُ أرى يَدَيْها الصغيرَتَيْن تضغطان على سطحه الواسع. مكاتب المؤسّسات العمومية كلها تتشابه.

بعد العشاء، عادت هي إلى طاولة رسمها في الصالة، وغسلتُ أنا الأطباق. والدتها لم تأكل معنا، وعندما ذهبتُ لأستعيد الصحن من غرفتها، قالت لي:

"وأنتو دوقا ما تروحوش"؟

كانت تقول دوقا مثل أصحاب دزاير القديمة.

"وين نروحو"؟

سألتُها مفتعلاً الجهل بسؤالها.

"وين؟ وشنو وين؟"، وقبل أن أُجيبها ردّت "والو والو".

كانت تغيبُ وتحضر، ويحدث أن تصمت لأيّام، كأن ملكاً يزورها، ويقطع لها الكلام.

وعندما عدتُ إلى المطبخ، وجدتُ مريم تقف أمام الأواني وهي تمسكُ بالمنشفة، بالطريقة العصبية نفسها، قبلَ أن تمُرِّرَ يدها على الرخام المبلّل. اقتربتُ منها، وقبّلتُ شَعْرها. أكملتُ غسل الأواني.

جلستُ في الصالة بجانب النافذة الكبيرة، وسط ما تبقّى من ظلام بعد أن أشعلت مريم الإضاءة فوق طاولتها. خلفها كان يوجد الرّفّ الذي يحمل كُتُب المؤسّسة، أغلبها لم يخرج إلى السوق ولا المكتبات العامّة. سألتُها عن المخطّطات، فقالت إنّه مشروع سكني في حَيّ المحمّديّة، كانت هي مَنْ حكت لي عن العمران الوظيفي وتاريخه، وارتباطه بسياسة معيّنة، تُصنّف النّاس داخل الإطار الذي تُعرِّف به العائلة في قوانينها: أب وأُمّ عاملان، طفلان على الأكثر طبقاً لسياسة تحديد النّسل، داخل شقّة صغيرة بعيداً عن العاصمة للحَدّ من التّكدّس، لكنّها قالت أيضاً إنه يجب توفير المواصلات، خاصّة القطارات ... في المؤسّسة كُنتُ أسمع العمّال يسخرون من تأخّر القطارات القديمة وسوء تنظيم الشركة بتسميتها بـ: "الشركة الوطنية لانتظار القطارات".

كان المشروع الذي تعمل عليه صغيراً، رفض مدير المكتب تمرير

مشاريع كثيرة أكبر حجماً دون النظر فيها، لم يقبل الرشوة. قالت إنه سيُقال من منصبه.

"ما يطوّلش ويروح".

قالت إنّهم يبيعون مناقصات لمشاريع مجمّدة. لن يُبنى شيء حتّى نهاية القرن. هنالك فوضى كبيرة في مجال البناء، ولا يوجد محترفون، فقط مُحدَثُو نعمة، يشترون كل شيء. كانت تُردّد دائماً عبارة "ça ne va pas tenir"(*). وعندما قالت لي إنّ كل ما يُبنى لن يصمد أمام الزلازل، بقيتُ مستغرباً. زلازل؟ لم أكن قد سمعتُ الكلمة منذ زلزال الأصنام سنة 1981.

أخبرتُها بقصّة كتاب الدوعاجي. كان الورق الذي ترسم عليه مختلفاً، أبيض اللون، لكنه أقرب للشّفّاف. قلتُ لها بأني أفكّر أن أكتب مقدّمة أخرى، وأن الأستاذ التّونسيّ الذي كتب المقدّمة لن تصله نسخٌ في الغالب، مقدّمته تشبه زجاجة مثقوبة رُمِيَت في البحر.

"أنا في بلاصتك نعاود نكتب الكتاب كامل".

لم أُميّز نبرتها إذا ما كانت ساخرة أم لا، ثمّ أضافت أن كتاباً مغشوشاً لا يقتل أحداً ليس مثل البناء. وعندما دخلْنا إلى السرير، في الظلام، أخبرتْني أنها حامل، والتصقتْ بي، شدّتْ على ذراعي، كي لا أُشعِل ضوء الأباجور، وسمعتُ صوتها يختنق، لم أفهم إذا ما كان بكاءً أم فرحة، تكوّمتْ والتصقتْ أكثر بجانبي الأيمن، ووجدتُ نفسي أتبع حركتها، مثل جنين توأم، لم يبقَ له الكثير ليخرج من دفء الرحم وظلامه.

---

*) لن تصمد.

5

تأخّر نشر كتاب الدوعاجي عاماً كاملاً. كُنت أقضي الشتاء وحيداً، كانت مريم قد سافرت مع والدتها إلى فرنسا في الشهور الأخيرة للحمل، اتّفقْنا أن تذهب هناك، وتبقى لفترة، أخذَتْ إجازةً غير مدفوعة الأجر. وعندما زُرتُها وجدتُها سعيدة، وقد بدأت تفكّر جدّيّاً في البقاء هناك. صارت أجمل وهي تحمل الولد بين ذراعَيْها، وهي تحاول أن تُلقِّمَهُ حَلَمَتَهَا، في أيّامه الأولى كان فمه أصغر من دُورَةِ الخاتم، ولم يستطع الإمساك بحَلَمَتِهَا. وكُنتُ أنا واقفاً على قَدَم واحدة، تُحاول إقناعي بالبقاء، وأنا لا أدري ما الذي يدفعني لترك مكتبي وسيّارتي وأهلي.

في الجزائر، كان الوضع خانقاً، خفّ العمل في المؤسّسة، ولم نعد نطبع كثيراً. كُنتُ قد أضفتُ على رفِّ الصالة كتابَيْن للقاضي عبد الجبّار المعتزلي: شرح الأصول الخمسة. أتى بهما من المطبعة ولدٌ جديد، اسمه بشير، كان سعيداً بقراءاته عن المعتزلة، ولكنّه كان يتأسّف على عدم توزيع الكُتُب:

"لو كان جات النّاس تقرا ولاّ سامعة بواش رانا نديرو... في ميزك رانا طبعناهم"؟

قلتُ له وأنا أُقلِّبُ صفحات الكتاب. عدَّل نظّارته، تجاهل سؤالي، وخرج.

ذات يوم عدتُ مباشرة من العمل إلى الدار، النهارات في الشتاء قصيرة، وكالعادة وجدتُ موقف العمارة ممتلئاً، الجميع دخلوا. رغم شغور أغلب شقق العمارة بسبب الأوضاع. العديد منهم هاجروا. رفُّ الصالة استقبل كُتُباً جديدة، وضعتُها جنب تلك الكُتُب كلها التي

صدرت منذ عقود، في بداية القرن. الطّاهر الحدّاد ... قاسم أمين ... أحمد أمين ... سلامة موسى ... فرانز فانون ... وصوت قروابي في الخلفية شرع الله قوم أفتح بابك... كل ما يجرالك في جبينك مكتوب قبالك... ما كانش فيها من صابها كيما يبغيها.

أردتُ تحضير الشاي، لكني تراجعتُ عن ذلك، فتحتُ النافذة، فدخلتِ الريحُ قوية باردة، أعدتُ غَلْقَهَا. لم أكن أرغب بالقراءة في الإمتاع والمؤانسة الذي كان مفتوحاً على سريري. كان مخطوط الدوعاجي حاضراً، لكنهم لم يطبعوه بعد، وكانت مقدّمتي تتصدّر القصص. بقيتُ أنظر من النافذة، لمعان أضواء الليل وانعكاسها على الإسفلت المبلّل أسفل العمارة. قرّرتُ أن أخرج. كان ذلك أمراً خطيراً، لكني تعوّدتُ عليه في الأشهر الأخيرة. أتسلّل من العمارة، وأمشي بضعة أمتار إلى كشك محمّد، حارس العمارة، أشاركه السجائر والحديث، ثمّ أعود. حظر التجوال كان قائماً، والحَرَس والشرطة كانوا يُوقِفُون كل ما يتحرّك في الظلام في محيط قصر الرئاسة التي كانت بلا رئيس.

أصعبُ لحظة في عملية الخروج كانت عندما يُفتَح باب المصعد في الطابق الأرضي، كل شيء بعد ذلك عادي ومتوقّع عندما تكون في الظلام. لكن باب المصعد الذي يُفتَح على المجهول وأنتَ محتجز داخل علبة حديدية، ذلك هو الخوف الحقيقي. كان محيط العمارة هادئاً. سرتُ بتمهّل نحو كشك الحارس. كان الباب مواراً، نظرتُ إلى الداخل، فلم أجده، وقفتُ بجانب الباب في الظلام. أردتُ أن أحتميَ بالباب، كي أُشعِل سيجارة، وقبل أن أفعل لاحظتُ أن العارضة الخشبية التي يرفعها محمّد للسّيّارات غير موجودة. نظرتُ إلى أعلى، فلم أجدها. كانت على الإسفلت مكسورة.وقبل أن أحاول فَهْم ما كان يحصل، سمعتُ صوت

كلاب تنبح، وسيّارات شرطة نازلة من جهة الرئاسة، من فوق. تجمّدتُ في مكاني لثانية، دفعتُ باب الكشك، ودخلتُ لأختبئَ، ثمّ قفزتُ إلى الخارج. ركضتُ نحو مدخل العمارة، دُستُ على بركة صغيرة من الطين والأعشاب، ففقدتُ توازني، لكني أمسكتُ بشيء حديدي، ربمّا كان سياجاً صغيراً، شعرتُ به يجرحني، وأكملتُ نحو العمارة. الأضواء كانت في موقف السّيّارات الآن، وصوت الصافرة كان يملأ المكان. أخذتُ أضغط على قفل المصعد الوحيد الذي في الخدمة، لكنه لم يفتح، انتبهتُ إلى الدماء في يدي، كانت قد لوّثت القفل. قرّرتُ أن أركض على الدرج، كُنتُ أُحبّ ذلك الدرج رغم أني لا أستعمله. العمارة كلها من الداخل تشبه مركبة فضائية في الأفلام القديمة. وشعرتُ بذلك أكثر عندما بدأتُ الركض صعوداً في ذلك الدرج الملتوي. كان يجذبني لأسفل. يبتلعُني. سمعتُ أصوات النينجا في الطابق الأرضي. كانوا يُغطّون وجوههم، ويُوقِفُون الناس على الطُّرُقات. ومع الوقت، صار الجميع يخاف من شَكْلهم. لا تعرف مع أيٍّ معسكرٍ هم. الناس يجدونهم في حواجز الشرطة وحواجز الإرهاب. لا تدري أيّ وجه يخفيه القناع. وعندما سمعتُ أحدهم يصرخ في الجماعة، كي يتبعوا الحركة على الدرج. ضاع منّي حساب الطوابق، ولكني واصلتُ الركض. في الظلام، متمنّياً أن يضرب زلزال، وينهار الدرج من تحتي، ويبتلعهم.

حتّى لا تسقطَ صورةُ كريم وتشي غيفارا مرّة أخرى

إلى نيكولاس ميدينا مورا

في مكسيكو سيتي، وقبل سنوات طويلة، سجّل أحد باعة القشّ القديم الجوّالين بسيّاراتهم صوت ابنته وهي تُردّد أسماء قَطْع أثاث على نغمة، يستعملها الباعة كلهم. فقط الأسماء، دون حروف ربط بينها. صار البائع يضع كاسيت ذلك النداء في مكبّر صوت فوق سيّارته حتّى لا يضطرّ إلى استعمال صوته طيلة اليوم. بعد هذا، لم يعد أحد من الباعة ينادي على الأثاث بصوته. انتشرت نُسخ من كاسيت الفتاة، وصارت السّيّارات المتهالكة كلها التي تجوب شوارع مكسيكو سيتي تحمل مكبّرات صوت، تُطلِق صوت الفتاة. استمرّ هذا طيلة سنوات وعقود، ولم يعُد أحد يعرف من أين جاء الصوت فعلاً، ولا ماذا حصل للفتاة، وأين هي، هل كبرت وواصلت حياتها في مدينة بعيدة، أو ربّما في المدينة ذاتها، حيث لا تزال تلتقي بصوتها القديم أكثر من مرّة في الأسبوع، وقد صار ملكاً للناس، شبحاً من الماضي يجوب الشوارع، وينادي على الأثاث والقشّ القديم، الغارق في الغبار والعتمة؟

وفي العموم، سواء وُجِدَت الفتاة أم لا، صار نداء الفتاة الصغيرة أسطورة صغيرة وتفصيلاً ثابتاً واعتيادياً في يوميات الثلاثين مليون ساكن للمدينة التي كانت تُعرَف باسم حيث الهواء نقي.

على بُعْد 9204 كلم من مكسيكو سيتي، وخلف المحيط، في مدينة لا يزال الهواء فيها شبه نقي، تستيقظ سيّدة سبعينية - يعرفها الجيران والعاملات عندها باسم مَدام جوزي، والمقرّبون باسم فضيلة - تفتح عينَيْها بعد أن شعرتْ بالسرير يتحرّك تحتها إثرَ نداءٍ مماثل لنداء الفتاة.

"ça bouge"(*)، تقول في نفسها.

تفتح عينَيْها متمنِّية أن تكون هزّة أرضية عابرة، لكنها تسمع صراخاً في الشارع. تُغمِضُ عينَيْها من جديد، وتُركِّز.تسمع صافرة قطار بعيد، ثمّ يعود الصراخ. تصلها الكلمة الأولى: فريجيداااار ... تفهم أنه أحد باعة القشّ القديم الجوّالين: فريجيداريبفيكوزينيااار .... قشقدديييمممم.

تتجاهل الصوت. تحاول الجلوس في مكانها، وتردّد:

"merde." (**)

تعوّدت مدام جوزي، منذ سفر ابنتها وابنها، في السنوات الأخيرة على تحضير إبريق قهوة كامل قبل النوم، تُفرِغه في الترموس الأحمر، تُحكِم إغلاقه، وتسير به إلى غرفة نومها. هكذا لا تضطرّ في الصباح لمواجهة الضوء وأصوات الشارع مباشرة بعد الخروج من سريرها. تشرب كوباً أو اثنَيْن من القهوة التي تبقى ساخنة عند رأسها طيلة الليل. تعبر على نهر القهوة الصغير إلى بداية اليوم ومشاغله.

لم تكن مشاغل مدام جوزي كثيرة، لكنْ، يحدث أن تكون مُتعَبَة، ومن

---

*) إنها تتحرّك.

**) خراء.

الصعب حَلّها، رغم بساطتها. ودائماً ما تتعلّقُ هذه المشاغل بصالون الحلاقة "نيفرتيتي" الذي تُديره منذ ثلاثين عاماً، والذي يقعُ على بُعْد خطوات من بيتها، بالقربِ من كنيسة القلب المقدّس.

***

"بونجور مدام،" تقول آسيا العاملة في الصالون، وهي تمسح المرايا.

"بونجور آسيا."

تتّجه مدام جوزي نحو مكتبها الصغير في آخر المحلّ، وتضع حقيبة يدها في الدرج الواسع، قبل أن تتفقّد شَعْرها بحركة سريعة من أطراف أصابعها. تقوم نحو خلفية المحلّ، وتُشعِل الضوء، الرائحة تسبق المنظر، السقف يقطر بالماء، بقعة بحجم عجلة سيّارة، كانت نقطة صغيرة، وبدأت تتوسّع مثل تلك الأورام التي تُصيب الرئة.

تحاول مدام جوزي الاتّصال بساكن الطابق الأوّل منذ شهر، لكنها لا تجد شخصاً تُكلِّمه، لا أحد يعرف له طريقاً. تُغيِّر الشّقّة مالكها كل سَنَتَيْن، والجيران كلهم جُدد وعابرون. وبعد استنفاد الطُّرُق كلها، اتّصلتْ بالشرطة - ابن أختها فريد محافظ شرطة في بوزريعة - وَدَعَتْهم للتّدخّل، كي يُوقِفوا فيضان المياه في الشّقّة. قالوا إنهم سيأتون اليوم.

لا تحبّ مدام جوزي اللجوء للحلول المتطرّفة دائماً، لكنْ، يبدو أن الناس صاروا يدفعون بها إلى خيارات كهذه. لا أحد من السّكّان يصغي إليها، الكل يهزّ رأسه، ولا يهتمّ بسقفها المتهالك، الرائحة وصلت إلى الصالون ممّا جعل العاملات يستعملنَ بخّاخ العطر أكثر من مرّة في اليوم. البنايات كلها تعاني مشكلات في الصيانة. أنابيب المياه تتآكل،

وحتّى الصرف الصّحّيّ من تحت البنايات صار يفيض على الناس في الشارع، ويصنع بحيرات في الأدوار الأرضية للبنايات. هذا كله ولا أحد يهتمّ، كأن الساكنين أشباح. صديقتها، مدام لكحل، قالت لها بأن الزلازل هي السبب، هي مَنْ تدفع بالبحر، وتجعله يحفر تحت البنايات. البحر يتقدّم ببطء من تحت المدينة، وسيبتلعها يوماً ما، هكذا قالت مدام لكحل بأسف وهي تشربُ قهوة العشيّة.

تقف مدام جوزي على الرصيف أمام محلّها. خلفها تُغطّي البوسترات - العالقة منذ سنوات بين الزجاج واللحاف داكن اللون - الفترينة القديمة. بوسترات حائلة اللون، تحمل صور موديلات، يلبسنَ أزياء، تجاوزتْها الموضة منذ الثّمانينيّات والتّسعينيّات، حتّى إنّها عادت لتُنتجها من جديد. وفي خلفية الموديلات، يمكن أن تُرى فصول السنة كلها، هنالك نساء يمشينَ على الثلج، وأخريات على الشاطئ في الصيف، وأخيراً الخريف بكمّيّة مبالغ فيها من الأوراق الميتة المفروشة على الأرض، صفراء وحمراء، لكن اللون الحائل جعلها كلها صفراء أقرب للتراب. ترفع مدام جوزي رأسها نحو بلكون الطابق الأوّل.

قبل منتصف النهار، حوالي الساعة الحادية عشرة، وصل رجال الشرطة ومعهم محضر قضائي. ركنوا سيّارتهم أمام الكنيسة، ونزلوا نحو باب البناية، حيث وجدوا مدام جوزي واقفة هناك.

تمدّ مدام جوزي يدها لضابط الشرطة الذي تردّد للحظة، ثمّ سلّم عليها. تريد أن تسأله عن فريد، لكنها تبتلعُ كلماتها، وتقوده إلى باب الشّقّة أعلى الدرج. كانت البناية هادئة، وتحتفظ - مثل البنايات القديمة كلها - ببرودة شتوية، ومصابيح مكسورة. تتراجع مدام جوزي، وتترك أحد رجال الشرطة يتقدّم نحو الباب، يدقّ مرّتَيْن وهو يسأل بطريقة

مسرحية، إذا ما كان يوجد أحد في الداخل؟ يدوم الأمر دقيقَتَيْن، يحسبهما الشّرطيّ بعينَيْه على ساعة يده. ثمّ يُخرج عُدَّته الصغيرة، ليفتح الباب في ثلاث دقائق.

***

افتتحت مدام جوزي صالونها في بداية الثّمانينيّات بعد أن التحق طفلاها بالمدرسة، وتفرّغت هي لمواصلة حياتها العملية بعدما تخفَّفت من بعض المشاغل. لم تكن قد عملت منذ أن تركت منصبها كمضيفة طيران بعد زواجها من السّيّد كريم جوزي، رئيس القسم الدّوليّ في النسخة الفرنسية من جريدة المجاهد طيلة عقدي السِّتِّينيَّات والسّبعينيّات.

في تلك الفترة، ورغم أن فضيلة كانت قد تركت العمل في الخطوط الجوّيّة الجزائرية، إلّا أنها استمرّت في السفر وزيارة البلدان البعيدة، مع زوجها الذي كان يرافق الوفود الجزائرية في المؤتمرات والقمم الدّوليّة في آسيا وإفريقيا وأمريكا الجنوبية. تحتفظ بصورهم في تلك الفترة في أربعة ألبومات كاملة من القَطْع الكبير، بالإضافة إلى عشرات التحف والتذكارات وقطع الأثاث التي جاؤوا بها من البلدان التي زاروها كلها.

لم يبقَ شيء من تلك الأعوام سوى الصور والذكريات، لكنها صنعت كل حكايات العائلة وتاريخها. كان كريم مستقرّاً في منصبه، وصار أوّل صحفي جزائري يلتقي تشي غيفارا، وينشر حواراً معه على ثلاث صفحات من جريدة المجاهدسنة 1963. صورة كريم وتشي غيفارا لا تزال في مكانها في مدخل الشّقّة، لم يحرّكها شيء سوى زلزال ماي 2003، سقطت، وانكسر الزجاج.

نزعت مدام جوزي الزجاج محاذِرةً ألّا يمسّ الصورة، التي يُرَى فيها زوجها الراحل وهو يجلس على حافّة كرسي، كأنّه سيقوم وجذعه مائلٌ بما يسمح له بالنظر في عدسة الكاميرا. كان يضعُ مسجّلاً أسود ضخماً على طاولة واطئة صغيرة، تفصله عن تشي غيفارا المسترخي على كرسيّه، واضعاً الساق على الساق، ومُمسِكاً بالسيجار وهو ينظر نحو الكاميرا أيضاً.

وسط هلع الأيّام التي تَلَتْ الزلزال، والهزّات الارتدادية المتتالية، خرجت مدام جوزي، وركبت تاكسي وفي يدها كيس به الصورة. توجّهت نحو محلّ سعيد في شارع موقادور خلف متحف الفنون المعاصرة، حيث يعمل حِرَفِيُّو تأطير الصور واللوحات.

قدّم لها سعيد - الذي صنع إطارات صور ولوحات عائلة جوزي كلها - كُرسياً لتجلس بينما يعمل على الإطار الجديد. حملَ الصورة بين يَدَيْه، نظرَ إليها لثوانٍ، حدّثها عن الراحل زوجها وزمن الرجال العظام، كما يُسمِّيهم، ثمّ قال وهو يشيرُ لصورة كبيرة للرئيس بومدين معلَّقة في مكان قريب من السقف العالي، حتّى إن العتمة ابتلعت نصفها العلوي:

"الله يرحم الرجال ...".

"... والنسا، الرجال والنسا يا سعيد." عقّبتْ عليه مدام جوزي. ثمّ سكتت وهي تراه يضع الصورة في الإطار الجديد، ثمّ يمسح الزجاج بمحلول أزرق قبل أن يرفع الصورة وهو يقول:

"نشفى كي اليوم، نهار جابها السي كريم الله يرحمه."

كانت تلك هي المرّة الثانية والأخيرة التي يصنع فيها سعيد إطاراً للصورة نفسها. الفرق بين المرّتَيْن كان أربعين عاماً.

استضاف بيت جوزي أيضاً ميريام ماكيبا عندما جاءت لتغنّي أنا حرّة في الجزائر. والعديد من المغنّيين، جزائريّين وأجانب، وكذا صحفيّين وكُتّاباً كان كريم يستلطف رفقتهم كلّما زاروا البلاد وقتها.

بسبب هذا كله لم يكن بوسع فضيلة العمل، كان عليها البقاء إلى جانب كريم، ورعاية الأولاد، والإشراف على سَيْر حياة العائلة، والقيام بالخيارات كلها من الأكل إلى الأثاث إلى ملابس كريم والأولاد.

كان زوّار شقّة شارع ديبوسي كلهم قد وقفوا منبهرين أمام رفوف التحف والكُتُب والصور واللوحات الأصلية في صالونها. كل مَنْ دخل صالون مدام جوزي، ترك أثراً، صورةً أو تذكاراً أو توقيعاً على كتاب. لا تزال رفوف المكتبة تحمل نسخة موقّعة من كتاب المفكّر مصطفى لشرف، وكذا نسخةً من ديوان للشاعر جان سِناك، تبتسم مدام جوزي كلّما تذكّرت لهجته في تلك الليلة الشّتويّة. كان الجميع يُشاكسه ويسخر من جاربَيْه الطويلَيْن الورديَّيْن. كريم التقط له صورةً ليلتها، ولكنها لا تعلم أين هي. ربمّا كانت في أحد الألبومات.

بعد تلك السنوات، تناقص عدد الزّوّار، وتناقصت الأسفار إلى الخارج، وبدأت مدام جوزي تفكّر في فتح صالون حلاقة وتجميل. الفكرة جاءتها بعد آخر رحلة بعيدة قامت بها مع زوجها، وكانت إلى مكسيكو سيتي، حيث زارا صديقهما لشرف عندما عُيِّن سفيراً هناك. لوقت طويل، ظلّت مدام جوزي تقول إنّها كانت أجمل رحلة قامت بها.

زارا الأماكن المحيطة بمكسيكو سيتي كلها، ذهبا إلى المتاحف، قادهما لشرف الذي كان منهمكاً في دراسة حضارة الآزتك وقتها. دخلت مدام جوزي قصوراً في الضواحي، بُنِيت في مكان غير بعيد عن البراكين

التي تحيط بالمدينة. زارت شققاً قديمة راقية في وسط المدينة، وأكلت أطباقاً لا تُنسى، واكتشفت أنهم يُمرّقون أكلهم تماماً مثلما يفعل الناس في الجزائر. المطبخ المكسيكي أسرَها، واشترت أكثر من كتاب طبخ بعد أن استمعت لنصائح النساء اللواتي استضفْنَها وإرشاداتهنّ.

وفي مكسيكو سيتي، في أحد الصباحات الهادئة ومن البلكون المحفوف بالنباتات العطرية والأزهار الصغيرة، سمعت مدام جوزي صوت تلك الطفلة من مكبّر صوت. وقفت لترى مصدر الصوت، فرأت تلك الشاحنة الصغيرة المتهالكة، وهي تحمل أثاثاً قديماً كثيراً مربوطاً من حولها، كأنّها عربة عائلة غجرية، وفوق هذا كله يرفع المكبّر عُنقه، ويُطلق نداء الفتاة مثل أُغنيّة غريبة غير مفهومة. وعندما عادت إلى داخل الشّقّة، وجدت أن طاولة السرير التي قرّبها كريم في الليلة الماضية من السرير، ابتعدت بضعة سنتيمترات نحو النافذة.

بعض العاملات في السفارة أخبرنَها بقصّة صوت الفتاة، لكنها لم تقلْ شيئاً عن طاولة النوم التي تحرّكت، فكّرت أنّ المدينة المُحاطة بالبراكين قد تكون بها هزّات أرضية. وقبل العودة إلى الجزائر، كانت قد حسمت أمرها بخصوص صالون الحلاقة كأفضل حلٍّ لتمضية الوقت، والخروج من عزلتها.

***

وجدوا بحيرة صغيرة تمتدّ من الحمّام حتّى إحدى الغرف. كانت الأنابيب في حالة سيّئة جدّاً، ولم يكن المشكل في شقّة الطابق الأوّل فقط، لكنْ، بسبب موقعها كانت تتلقّى كل ما ينزل من الطوابق العليا.

تراجع رجال الشرطة إلى الباب، وبدأ العمّال الذين اتّصلتْ بهم مدام

جوزي في البحث عن أصل المشكلة. كانت الشّقّة مكتظّة بالأثاث. قِطَع قديمة وصلبة وضخمة، وأخرى جديدة وبلاستيكية وأقلّ قيمة. كل غرفة كانت مثل قبو قديم، استقرّت بها كتلة غير واضحة المعالم، نصفها مغطّى بلحاف قديم، والغبار ... غبار فوق كل شيء، وتحت كل شيء، غبار يغطّي الشّقّة.

اضطرّ العمّال لإخراج بعض القِطَع لعدم وجود مكان داخل الشّقّة لنقلها. خاصّة تلك التي كانت تسدّ مدخل الغرفة، ونزلوا بها إلى مدخل العمارة، ثمّ وجدوا أنها تعيق حركة الداخلين والخارجين، فحملوها إلى الرصيف أمام صالون مدام جوزي.

تنظرُ مدام جوزي إلى قِطَع الأثاث، الخدوش العميقة في الخشب اللامع للكومود حادّ الزوايا، والتجويف الذي بالكاد يُرَى على سطح الكرسي، حيث يجلس الواحد. ولكنهم حملوا أشياء أخرى، مروحة كهربائية قديمة ماركة ENIEM وطاولة معدنية صغيرة وبعض الكراتين الملفوفة بشريط لاصق. كوّموا كل شيء في مساحة ركن سيّارة جنب الرصيف، وعادوا إلى عملهم.

كان رجال الشرطة يتكلّمون مع جارَيْن من البناية. أحدهما كان خارجاً ليتفاجأ بباب شقّة الطابق الأوّل مفتوحاً، ورجال الشرطة يُشرفون على إخراج قِطَع أثاث. أمّا الثاني، فقد كان عائداً بابنته من المدرسة. أخذهما شرطي إلى مدخل العمارة، حيث الظّلّ، وسألهما بضعة أسئلة، وأخذ معلوماتهما، وطلب منهما الاتّصال بهم، أو إبلاغ مدام جوزي إذا ما توصّلا بساكن الطابق الأول.

"كاين زوج عباد مسجلين على هذي الدار" قال الشرطي وهو يمسح

قطرات العَرَق من على جبهته. "ما زال ما عرفناش كيفاش نلحقوا لهم، واحد ساكن في عنابة ولاخُر في فرنسا."

تدخل مدام جوزي إلى صالونها، الساعة تقتربُ من منتصف النهار. في العادة، تترك الصالون في هذا الوقت، أو في وقت أبْكَرَ قليلاً، إذا ما كانت تحتاج لشراء شيء من السوق. لكنّها تُقرّر الانتظار. ربمّا ينتهي العمّال اليوم، ولكنْ، سيبقى لهم إصلاح سقف الصالون الذي تضرّر. ومَنْ سيدفع؟ هي طبعاً. يشترون الشقق، ويتركونها هكذا.

هنالك زبونة واحدة في المحلّ. جلست مدام جوزي على أحد كراسي الانتظار، ورتّبت المجلّات على الطاولة الصغيرة، تنظرُ نحو المرآة التي تُغطّي الجدار كله، فتتقاطع نظرتها مع نظرة الزبونة، وتبتسمان لبعض.

عندما انصرف رجال الشرطة، وتفرّق الجيران إلى مشاغلهم. رأت مدام جوزي من خلف الفترينة شابّاً يتقدّم من الأثاث على الرصيف. يلبس مئزراً أزرق، ويخطو بحذر. يدور حول الأثاث، ويتفحّصه، وعندما مَدّ يده لمسح الغبار عن سطح الكومود، خرجت مدام جوزي من المحلّ.

"صباح الخير، مدام."

"باخير."

"للبيع هذا؟"

تتردّد مدام جوزي:

"لا، لا. كاش ما تحتاج؟" تقول بعربية مرتعشة.

"لا، نشوف برك." قال الشّابّ، وابتسم كاشفاً عن أسنان بيضاء. وضع يده على السطح الخشبي، ودقّ مرّتَيْن. نظر إلى فترينة المحلّ، وسألها: "محلّ شباب ...".

"يسلمك." تقول مدام جوزي بصوت مخنوق، ودقّت على السطح الخشبي. " أنتَ تاع القشّ القديم؟"

"آنعم."

"أنت اللّي جزت الصباح تعيّط ف ديبوسي؟"

"وين ديبوسي هذا مدام؟"

تتردّد مدام جوزي في إظهار ضِيْقِها، ثمّ تُجيب متمالكة نفسها:

"هنا لتحت." وتشير على يمينها.

"لا لا، مشي أنا ... بصّح حتّى احنا من الصباح رانا هنا وما شرينا والو، كاش ما عندك للبيع مدام؟"

"لا... لا... ما عنديش."

العديد من معارف مدام جوزي الذين يسكنون شققاً قديمة في مدينة الجزائر، مقتنعون أن هؤلاء الباعة يقصدون أحياءهم عامِدين، لأنهم يعلمون بوجود قِطَع نادرة من الأثاث في هذه الشقق. أثاث يعود إلى الأربعينيّات، وربمّا أقدم. وَجَدَهُ السّكّان في الشقق بعد أن خرج منها الأوروبيون بداية السِّتِّينيَّات. يمشون في الشوارع بمآزرهم الزرقاء، وينادون على الأثاث المستقرّ في العتمة، ويحرّكونه بندائهم ممّا يُسبّب فوضى داخل الشقق، وقد يكون الأمر خطيراً عندما تتحرّك المكتبات

العالية والثقيلة. بعضهم يريد أن يمنع باعة القشّ القديم، وبعضهم يكتفي بإحكام إغلاق النوافذ، وتثبيت الأثاث القديم حتّى لا يتحرّك. لكن مدام جوزي لا تُصدّق هذه الحكايات.

"معليش، وهذو تاع شكون؟"

"تاع الجار هنا." تشيرُ مدام جوزي بأصبعها إلى الطابق الأوّل.

"ما يبيعش؟" قال الشّابّ، وابتسم.

"لازم تسقسيه هو... إذا جا..." تُتمتمُ مدام جوزي.

"كيفاش؟"

"والو... والو."

يهزّ الشّابّ رأسه، ويبتسم، ثمّ يستدير ليذهب، فتستوقفه مدام جوزي:

"قل لي ..." تتردّد، ثمّ تسأل: "واش تقولوا كي تعيّطو؟"

يضحك الشّابّ، ويحكّ رأسه:

"فريجيدار ... بيفي ... كويزينيار .... كومود .... طابلة ... كانابي ... قشّ قديم. بصّح كل واحد كيفاش يقولها، وكاين اللّي يزيد حاجات من عنده ...".

"هممممم..." تقول مدام جوزي لنفسها، ثمّ تضيف "صحّيت."

"نخلّي لك النيميرو مدام، بالاك تحبي تبيعي حاجة؟"

"خلّي لي النيميرو،" تقول مدام جوزي وهي تصطنع التّذمّر.

"أعطيني ورقة نكتبو ولا اكتبي في تليفونك."

"تاني..." تقول مدام جوزي ثمّ تضيف ساخرة "ما عندكش carte visite".

"لا لا مدام... ما زال شوية هذيك."

تمدُّ له هاتفها، فيسجّل رَقْمَهُ، ثمّ يقرؤه من دون صوت، ليتأكّد منه، ويعيدُه لها:

"ماركي وليد مدام، أيّا أبقاي على خير."

***

تقفُ مدام جوزي على عتبة صيدلية "ديدوش" المقابلة لبداية شارع ديبوسي، تُمسك بكيس الأدوية الصغيرة. كالعادة، آملور 5 ملغ. كانت قد أخبرت الفتاة بما شعرت به في الصباح، لكن ضغط الدم كان على غير المتوقّع ثابتاً (8/13) بفضل الأدوية.

"ارتاحي برك، بالاك كاش حاجة قلقاتك. آملور 5 ملغ مليح... ما شكّيتش تحتاجي تاع 10 ملغ."

تتجاوزُ مدام جوزي الدرج الميكانيكي الذي يصعد من شارع دييوسي إلى شارع محمّد الخامس، حرارة اليوم معتدلة، ولكن الرطوبة - كالعادة - خانقة. خطواتها ثقيلة. سألتْها الفتاة إن كانت تأخذ الدواء بانتظام، فأجابت نعم. سألتْها إذا ما كان هنالك شيء أزعجها، أو فكّرت فيه كثيراً مؤخّراً. تردّدت مدام جوزي قليلاً، ثمّ أخبرتْها عن يومها، والمشاكل

في بناية صالون الحلاقة، سمعت الفتاة بانتباه، ثمّ أخبرتْها بدورها عن قصّة مماثلة حصلت لهم في الصّيدليّة قبل أشهر. أرادت مدام جوزي أن تسترسل في كلامها، وتسألها إذا ما لاحظت شيئاً بخصوص باعة القشّ القديم، لكن الفتاة قطعت الحديث بابتسامة، وعادت لتساعد زميلاتها مع الزبائن.

على باب العمارة، تتردّد مدام جوزي بين المصعد والدرج، ثمّ تركبُ المصعد. تُغمِض عينَيْها مع هزّة المصعد عند وصوله إلى الطابق الرابع. تسير تلتقط أنفاسها حتّى صالون الشّقّة، وتجلسُ على أوّل كرسي اعترضها.

تجيء بكوب ماءٍ من المطبخ. تجلس على الفوتاي الكبير جنب الهاتف. تقول لنفسها إنها ستلتقط أنفاسها وتتّصل بنهى. ابنتها التي تعيش في إسبانيا. تشربُ القليل من الماء، ثمّ ترفعُ بصرها لتتأكّد من وجود الأثاث من حولها. تقوم لتشدّ الستائر حتّى يدخل ضوء الظهيرة، ورغم هذا يبقى الصالون مظلماً. تُشعِل الثّريّا الكبيرة بلمباتها العشر، وتنظر إلى الأثاث. التحف والصور. تقتربُ من صورة كريم وتشي غيفارا، المعلّقة فوق الفوتاي. تمسحُ بظَهْر أصابعها الرقيقة على وجه كريم والتشي.

الظلمة التي تعيش فيها صالونات الناس في هذه البنايات القديمة، تجعل الأثاث نصف شبحي. كأنه خيالات سوداء وكُتل هلامية غير معلومة، وليس جماداً صلباً، يمكن أن تصطدم به أقدام مَنْ يعبر الصالون في الظلام.

تنظرُ من النافذة. الشارع خالٍ، الظهيرة وصلت إلى نقطة الذروة،

حيث يعمّ السكون لبضع دقائق، وتشتدّ درجة الحرارة. عندما تهمّ مدام جوزي بالجلوس، يصلها النداء مرّة ثانية، تعود إلى النافذة، لكنها لم تجد شيئاً. ينادي الصوت من جديد. تضعُ يدها على سطح الرخام البارد لطاولة الهاتف، لكنها لا تشعر بشيء. تجلسُ على الفوتاي، وتُخرِجُ هاتفها من حقيبة يدها. تتردّد للحظة هل تتّصل من الثابت أو المحمول؟ ثمّ تضغطُ على رَقْم نهى. وبينما تُنصِت إلى رنّة الانتظار تشعرُ بالفوتاي تحتها يتحرّك. لم تجزع. لم تتحرّك. لم تُغمِض عينَيْها. واصلت الإمساك بالهاتف منتظرةً صوت ابنتها، ومدّت يدها - دون أن تلتفت - إلى صورة كريم والتشي المعلّقة فوق رأسها، وثبّتتها في مكانها حتّى يبتعد النداء في الشارع. لن تترك أيّ شيءٍ يُسقِطُ صورة كريم تشي غيفارا مرّة أخرى.

بيجو 505

"شوف"، يقول السّيّد كريمو وهو يُشعِل سيجارته الثّانية بيد، ويمسح بيده سطح الطّاولة السّوداء الصّغيرة في غرفة انتظار مكتب توثيق، يفصله عن شارع ديدوش مراد ثلاثة طوابق. "الطونوبيل هذي شريتها عام 88، أنا طلعت لفرنسا، لمونبولييه، تعرفها؟ خيّرتها بيدي ورجعت ... وصلتني ف البابور، في شهر نوفمبر. كُنت قادر نشري مرسيدس بالسّومة تع هذي".

يسكتُ السّيّد كريمو ويسرَح بنظرته في الستائر الخضراء الشّفّافة التي يلعب بها هواءٌ صيفي ساخن. صديقه أحمد - الموثّق - لم يهتمّ يوماً بنظافة مكتبه. يترك النوافذ مفتوحة طيلة العام، أطنان من الأتربة والغبار المتراكم.

المهمّ. يبدو هذا الفتى متحمِّساً لسماع بقية القصّة، ولهذا يأخذ السّيّد كريمو وقته في الكلام، يعرف جيّداً بأنّه لا يحظى بمستمعٍ جيّد كهذا كل يوم.

"أنا قبل ما نروح لفرنسا كُنت شُفت بلّي البلاد ما كانتش مليحة، أنت صغير ما تشفاش ولاّ ما كُنتش زدت. كي لحَقتْ لفرنسا حكيت مع واحد صاحبي بوليسي قال لي: الحالة ما راهيش مليحة كريمو، أخطيك من لالمانية. أنا سمعت له ومزيّة سمعت له. في 5 أكتوبر النّاس وين كانوا يشوفوا طونوبيل مليحة يكسرّوها ويحرقوها، هاو باباك يقول لك".

وأشار بيده إلى والد الفتى الذي كان يُمضي عقدَ شراء البيجو على مكتب الموثّق، فابتسم ببلاهة - كأنّما يُصدِّق على كلامه وإشارته التي أدخلَتْهُ في التاريخ، ليكون شاهداً.

"كي وَصْلت البيجو رُحت جبتها من البابور، ما حبيتش النّاس يشوفوها ف الحومة. هذاك الوقت كُنت ساكن ف الحرّاش. خُفت يقول لك هذا كاش ما سرق في 5 أكتوبر ولا منين جاوَه الدراهم، مالاّ جبتها لدار السّي أحمد هذا اللي تشوف فيه، خليتها عنده شي يامات مْخَبْيَة ف الجنان تاع داره. جديدة تشعل! الصالون تاعها جِلْد وهي كي الفضّة، كي شافها السّي أحمد قال لي: تقول سرقناها من الرئاسة يا دين الرّب..."

يقول السّيّد كريمو جُملته هذه، ثمّ ينفجر بالضحك، ويبدأ وصلة سُعال، تجعل وجهه ورقبته يصيران في لون النبيذ، يُطفِئ سيجارته وهو يبتسم، يشرب من كأس الماء أمامه قبل أن يمسح على شاربه الأشيب وذقنه.

"من بَعد قُلت لازم نخبّيها حتّى يفوتوا المشاكل هذوك... أنا من بجاية (يقولها بتعطيش الجيم، وكلّما استوقفت هذه الجيم مُحاوره، لا يُفوّت السّيّد كريمو أن يُخبرَه بتقارب اللهجات بين بجاية والرباط وكل المناطق التي استوطن فيها أهل الأندلس) خرجت من الخدمة وخديت الطونوبيل. صحابي قالوا لي يا كريمو لازم تشري الطريق منّا لبجاية، أنا ضحكت وقلت لهم: علاش راني رافد البارود ولاّ الغَبرة"؟

هنا بدَت الحَيْرة على الولد. تردّد السّيّد كريمو في شرح الكلمة الأخيرة، ثمّ قال: "يعني الكوكايين". لكنّه شعَر بأنّ الفتى بدأ يشعر بالملل من

الحكاية، دائماً ما يحدث هذا عندما يبدأ في شرح الكلمات والأحداث في حكايته، تنفتحُ ثغرات في كلامه، وتسيلُ منها الذكريات، كثيفة ومحمّلة بكل شيء، مثل مياه المجاري، ويغرق هو بين التّذكّر والحكي.

يبيعُ السّيّد كريمو اليوم سيّارته البيجو 505، بعد سنوات من العِشرة والطُّرُق المُشتركة. والدُ الفتى مهتمّ بالسّيّارات القديمة التي لا تزال في حالة جيّدة. ربمّا لو جاءه قبل سنوات ما كان السّيّد كريمو ليبيعه، لكنّه الآن، ولدهشته الكُبرى التي تعوّد عليها في مثل هذه المواقف، لم يعُد يهتمّ. يحبّ السّيّارة، كما يحبّ أشياء أخرى كثيرة، لكنّه ما عاد قادراً على ربطِ الحُبّ والألفَة بالامتلاك. رغم قيمة السّيّارة والحكايات التي تشكّلتْ وتكلّستْ في زوايا بعيدة ومظلمة من الذاكرة، إلاّ أنّ لكل شيء عُمراً.

وَدِّعْ حبيبَكَ، فإنّكَ اليومَ مفارقه، وهل تطيقُ وداعاً، أيّها الرجُل؟ "نعم، تُطيق"، يقول السّيّد كريمو لنفسه بارتياح. صار ينشُدُ الخفّة. يكفيه ثِقلُ الحكايات. صحيح أنّه يحبّها، الحكايات - بل ويقيس البشر والأشياء بحكاياتهم، لكنّ الخفّة ضرورية، كي يتفرّغ لهذا كله.

"وصلت مع الظهر، دَخّلت الطونوبيل، تغدّيت مع يمّا ورقدت، كانت الشتا تطيح والبرد سْمْ، ما حبيتش نخرج. من بعد جاتني ف راسي: ما نرجعش لدزاير نبقى في بجاية".

وبقي السّيّد كريمو في بجاية، عاد ليومَيْن في القطار، نقَلَ عمله وحقيبته الصغيرة، واستقرّ في بجاية من جديد، استأجر استوديو صغيراً غير بعيدٍ عن الميناء، وصار لا يستعمل البيجو 505 إلاّ مرّات قليلة.

ثمّ جاءت التّسعينيّات "مثل طوفان"، كما يصفها السّيّد كريمو دائماً،

يمحو ما قبله، ويسدّ الأفق. حتّى اليوم لازال السّيّد كريمو يستيقظ فزعاً على الكابوس نفسه، قد يغيب شهوراً وأعواماً حتّى ينساه، ثمّ يعود لليلَتَيْن متتاليَتَيْن، فيُخرِج معه كل ما مضى، يجدُ نفسه وسط الليل ينهجُ بشدّة، والسؤال القديم لامرأته في رأسه: كيف عَبَرنا نهاية القرن؟

أكثر حكاية يردّدها السّيّد كريمو عن التّسعينيّات لا يوجد فيها سهرة سُكْرٍ انتهت بجريمة في سواد ليل حظر التجوال، ليس فيها ظلامٌ حتّى. تطفو هذه الحكاية دائماً فوق حكايات الفوضى كلها، الخليط البشع، الميك - ماك الذي يستحضره النّاس عند تذكّر تلك الفترة.

"أنا كل صباح كنت ننوض نلبس حوايجي ونخرج، نشري الجرنان، ونهبط ف الـ piétonnière(*) حتّى place Gyuedon،" يسيرُ حيث المقاهي والفُتحة الصغيرة التي تُنزِلُ إلى السينماتيك. يقول السّيّد كريمو إنّه كان يوماً شتوياً جميلاً، سماءٌ صافية وشمسٌ باردة، بالكاد تلمسه أشعّتها. جلس السّيّد كريمو في مقهى "ريشليو" الذي يُخرِجُ طاولاته وكراسيه جنب حافّة الساحة المطلّة على البحر. "فتحت الجرنان، غير الدم والقتيلة والبومبات، حتّى الجرنان كانوا يكتبوه بالأكحل والأحمر، بديت نقرا، هذا مات، هذا قتلوه، لاخر ذبحوه... غير الدم..." هكذا يحكي دائماً السّيّد كريمو لأصحابه ومعارفه، ثمّ يُكمِل "وكي رفدت راسي، قابلوني جبال البابور، كبار... عاليين... مغطيين بالتلج... بين السما والبحر... الدنيا زرقة... يا دين الرب-تحس شغُل la nature كانت تضحك علينا وتقول لنا ما تقدروش تشوفوا الخير هذا قاع، وقاعدين تقتلوا وتذبحوا في بعضكم".

لكنْ، الآن كان الفتى قد غادر مع والده. سلّموه المال، وسلّمهم

---

*)ممشى الراجلين.

المفاتيح، وانتهى كل شيء. يسكبُ السّيّد كريمو كأس ماء بارد، ويخرج إلى البلكون يُدخِّن. من الداخل، وصله صوت أحمد الذي يقرأ في الجريدة مُعلّقاً على الأخبار: "شفت الديناصورات هذو ولاد الحرام... آه".

دائماً ما كانت البيجو جيّدة في الطُّرُق المنحدرة والمتعرّجة. في منتصف التّسعينيّات، وصل صديقٌ له مع زوجته إلى بجاية. كان صحفياً، وكان قد نجا من عملية اغتيال، وقرّر أن يهرب. بقي عنده في الاستوديو، ثمّ اتّفقوا على أن يُوصِلهما السّيّد كريمو إلى قريتهم في الجبل. عندما يتذكّر السّيّد كريمو هذه الحكاية يقول لنفسه: "كُنّا مقودين، والله لو كان جات اليوم ما نعاودها." لكنّه فعلها. قادَ طيلة طريق الجبل بالبيجو 505، وصلوا إلى القرية قبل العصر، وطلبوا من السّيّد كريمو أن يبيت ليلته. حكى له صديقه الصّحفيّ حكايات كثيرة عن قريته تلك، قال بأنّهم يتحدّرون من نسَلِ ابن عربي مع زوجته البجاوية مريم، وأن اسم سلالتهم هو إحاتميين مثل لقب ابن عربي الأوّل. لم يهتمّ السّيّد كريمو كثيراً، بل لم يُصدّق كثيراً، كان يعرف حكاية مرور ابن عربي ببجاية، لكنه لم يقرأ يوماً عن نسلِه هنا. كان الأمر غريباً بالنسبة إليه. مع الفجر لبس ثيابه، وشرب قهوته، وأدارَ مُحرّك السّيّارة. لازم "نرجع، هذاك هو". كانوا في بداية الخريف، ولكن الصباح كان بارداً ونديّاً.

وبينما هما يتكلّمان واقفَيْن جنب السّيّارة، لمح السّيّد كريمو رجلاً يتقدّم نحوهما. كان عجوزاً يلبس بُرنساً أبيض، همس الصّحفيّ بأنّه إمام القرية، صبّح عليهما، سألهما عن حالهما؟ وسأل السّيّد كريمو إذا ما كان سينزل إلى المدينة؟ فأومأ هذا الأخير برأسه. طلب منه الشيخ أن يأخذ حذره ممّا يُخفيه الضباب. ثمّ مَدّ يده تجاه الزجاج النّديّ لباب الراكب للبيجو 505 ورسم بأصبعه حرف "ن"، سلّمَ عليهما، وانصرف.

لأسبوع كامل، ظلَّ السيد كريمو يرى ذلك النون على الزجاج، يختفي طيلة النهار عندما يكون الجوّ بارداً وجافّاً، ويظهر في الصباح مع تشكُّل الندى على الزجاج. تميمةٌ لا مَرئيّة سارت معه، وحَرَسَتْهُ. كم يبدو بعيداً ذلك النون المرسوم بالماء في هذه الظهيرة اللاّهبة!

يبلَعُ السّيّد كريمو ريقه، ويعود إلى الداخل. تتداخلُ الصور في رأسه، يرى مطعماً صغيراً في ساحة لا كوميدي في مونبولييه، سهر فيه، وأكل سمكاً، وشرب نبيذاً أبيض لاسعاً. هناك أيضاً، منظر جبال البابور من مقهى "ريشليو"، الشمس الباردة والهاشمي قروابي وهو يغنّي أُغنيّة بالاسم نفسه. المنظر نفسه يراهُ من نافذة حانة "كافيه دو فرانس"، على بُعْد أمتار من ساحة قيدون، ربمّا الحانة الوحيدة في البلاد كلها التي تملك إطلالة بَحْريّة جميلة ... ربمّا. حانةٌ لا تُشبه التابوت. يتنفّسُ السّيّد كريمو، يشعُر بالعطش، تزول الصور كلها، وتذوبُ مثل الماء على سطح الكأس البارد في يده، ينظرُ للكأس، ويتذكّر زجاج البيجو في ذلك الفجر البعيد، الضباب، ضبابٌ في كل مكان. لكنّه منذ تلك الأيّام ما عاد ينتظرُ خروج الأشياء من الضباب. الآن، هو يخطو بداخله.

يسمعُ السّيّد كريمو صوت محرّك البيجو في الشارع الفرعي الموازي للعمارة. يميل بجسده من على دربوز البلكون ليرى. شعرَ بالصوت أكثر ممّا سمعه: الصوت الذي صنع صباحاته لمدّة عشرين عاماً. يُطلّ على ضجّة الشارع وحركته تحت الشمس الحارقة قبل أن يراها - تُطلّ بمقدّمتها اللامعة وعجلاتها السوداء المغسولة - وهي تنساب وسط حركة السَّيْر مثل سمكة قرش فضِّيَّة.

قبلَ الزلزالِ

الشتاء صار نحيلاً، أقلّ من ثلاثة أشهر والسماء لا تمطر سوى في أيّامٍ معدودة. اليوم الذي تركتُ فيه قاعات الدروس التّطبيقيّة بجامعة باب الزوار كان مُمطِراً. ثلاثاء أو أربعاء لا أتذكّر. كُنتُ عائدةً في القطار. قطارات الضواحي تحمل حياة الناس كل يوم بين الجزائر والضاحية الشّرقيّة، كل يوم. طَلَبَةٌ وموظّفون وبطّالون، تراهم يكبرون ويُحبُّون وينكسرون وتعود بهم سكرانين وحزانى وفرحانين. تمنحهم مقاعد شاغرة، أو بضعة سنتمترات للوقوف. تجمعهم من على أرصفة المحطّات، وترمي أغلبهم على رصيف الرغاية. يجب أن تروا كيف يفرغ القطار مرّة واحدة في الرغاية.

***

ماما تركت وصْلَ المصبغة على الثلاجة، ثبّتَتْه بحبّة برتقال بلاستيكية صغيرة، يوجد في قلبها مغناطيس. قامت بذلك قبل أن تذهب لبيت أختي يوم الاثنَيْن، وبهذا كانت متأكّدة من أني لن أنسى المعطف. لم نتهاوَن يوماً في استرجاع أشيائنا، لا الملابس من المصبغة، ولا صينيات البقلاوة من عند الخبّاز. قالت أيضاً إنها ستبقى حتّى نهاية الأسبوع في تيبازة، عند أختي، ممّا يعني أني سأكون وحدي في الشّقّة.

في الليلة الأولى أكلتُ من العدس الذي تركتْهُ، وقشّرتُ حبَّتَي

بُرتقال، الكثيرون يتفادون القهوة والبرتقال في المساء، لم أفكّر يوماً في الأمر، النوم عندي مثل قطار يشقُّ طريقه في الليل ... لا شيء يُوقِفُهُ.

***

نزلتُ من القطار، وسط موجة البشر تلك، انحدرتُ من المحطّة، ومشيتُ حتّى مركز البريد، واستدرتُ على اليسار، حيث توجد المصبغة. لم تكن هنالك شمسٌ أصلاً حتّى يكون غروب، سماءٌ ثقيلةٌ ومظلمة، وعندما فتحتُ باب المصبغة الزّجاجيّ، شعرتُ أني أدخل فقاعةً من العتمة والدفء.

أُحبّ الرغاية، لكنّه حُبٌّ قديم، أُحبّ ما كانت عليه الرغاية يوماً، قبل الزلزال مثلاً عندما كان عدد السّكّان قليلاً والمكان هادئاً. لكنها اليوم تزداد سوءاً كل يوم، والأرصفة تتكسّر وتنهار بلاطاتها تحت الأقدام، خاصّة في الشتاء. ذكرياتي كلها هنا متعلّقة بالطفولة. أشعر أن هنالك شرنقةً ما قد تمزّقت وأنا أنتظر الوقت المناسب لأطير وأبتعد، لا أدري إلى أيّ أفق، لكن البحر جميل دائماً.

أخرجتُ وصلَ الملابس، وقدّمتُهُ للعامل الذي أخذه واختفى خلف آلة الغسيل الضخمة. بقيتُ أنتظره، وأُقلّبُ في رأسي هذه الأفكار كلها عن الرغاية. على يساري، كان هنالك بوستر ضخم، يُغطّي الجدار كلّه. لم أكن قد انتبهتُ له من قبل. بوستر ضخم لبناية الكانز التي انهارت في الزلزال الأخير، ورغم أنّ البناية كانت فلو قليلاً، لأنّ البوستر كان تكبيراً لصورة صغيرة، إلا أنها كانت هي، أذكرها.

***

ماما تقول إنيّ أشبه والدي عندما أفرش أوراقي ومخطّطاتي في الصالون، وأغلق الباب، وأصيرُ حسّاسة لأدنى حركة وصوت، ربمّا كان هذا صحيحاً، لكن الأُمّهات دائماً ما يُرجِعنَ الصفات السَّيِّئة لأبنائهنّ إلى الآباء. لكن هذا ليس صحيحاً، ما أريده هو أن أبقى وحدي فقط. لذلك أُفكّر كثيراً في الابتعاد.

أُحبّ البقاء وحدي في دارنا. لأطول وقتٍ ممكن، رغم أني أعيش مع ماما فقط بعد زواج أختي. خاصّة في فصل الشتاء، أشعرُ بأنيّ أعيش في مكان بعيد، كأنّ لا أحد يعرفني هنا، كأنّها أيّامٌ مسروقة من حياة مستقبلية.

***

بقيتُ أنتظر العامل، وأنظرُ إلى صفوف الملابس المُعلَّقة، فوق آلات الغسيل الضخمة القديمة. بدَت كأنّها غيمة سوداء محبوسة بالسقف، أو ثُقباً أسود، تصدر عنه تلك العتمة الثقيلة التي تُغرِقُ المحلّ. كان عددها كبيراً جدّاً، لا أعرف بالتحديد، لكنها تتجاوز المئة سروالٍ ومعطف.

كان ظاهراً أنّ تلك الملابس تعود لزمنٍ مضى. موضتها قديمة، قُماشها خشن، وكُلّه مربّعات صغيرة سوداء وقهوية اللون. وكان ظاهراً أيضاً أنّها ملابس تراكَمت هناك بالنسيان. تذكّرتُ الجاكيت الذي كان يلبسه جدي في الصورة القديمة. كُنا نُعلّقها في الصالة، قبل أن تختفي مع نهاية التّسعينيّات. أذكر أننا دَهَنَّا البيت، وعندما انتهيْنا وأعَدْنا الأثاث، اختفتِ الصورة. كان ذلك قبل الزلزال.

***

تلك الصورة شغلتْ بالي لسنوات، سألتُ ماما أكثر من مرّة، لكنها لم تكن تعرف. ورغم أننا من العائلات التي لا تُفرِّط في أثاثها ومقتنياتها - ليس مثل هؤلاء الذين تركوا ملابسهم هنا - إلاّ أننا لم نجدها. قبل مدّة قرأتُ مقالاً عن عائلات الطبقة الوسطى التي لا ترمي شيئاً من أثاثها، ولا تُجدّده، وتُكمِل حياتها وسط بيوتٍ تُشبه مخازن المتاحف. طبعاً، الرغاية ليست بلدة طبقة وسطى، ولا تطمحُ لتكون كذلك، لكنْ، توجد بها بعض العائلات التي لامَست حدود تلك الطبقة، قبل أن يأتي الزلزال، ويُنهِي كل شيء.

***

العُمّال في المصبغة أشكالهم غريبة. وجوههم مثل مثلّثات الجُبنة، ذقونهم مُدبّبة، خدودهم مُعظّمة وحمراء. كأنهم من منغوليا أو من ذلك المكان الذي يسمّونه آسيا الصغرى.

لون شُعُورهم عبارة عن تدرّج بين اللّونَيْن الأشقر والبُنِّيِّ. كأنّ به بُقع جافيل. فكّرتُ وقتها أن ذلك راجع لتعرُّضهم الدائم لموادّ كيميائية، يستعملونها لغسل الثياب، وأنّهم سيموتون، كما يحدث في البلدات الأمريكية التي تُقام بجنبها مصانع تنفثُ سمومها في المياه الباطنية. تماماً مثل قصّة فيلم إيرين بروكوفيتش. يفقد السّكّان شُعُورهم وجُلُودهم، يُصابون بأمراض وأورام خبيثة تقتلهم.

***

لا أحدَ يذكر بناية الكانز اليوم، رغم أنّها أعلى بناية في البلدة. سّكّان الضاحية الشّرقيّة كلهم يعرفونها، لأنهم كانوا يمرّون من أمامها في طريقهم

إلى شواطئ الرغاية وعين طاية. لكنّها سقطتْ، وقضَتْ على حُلم البلدة التي كانت تتردّد في أن تنتقل من بلدة عُمّال ونازحين إلى ضاحيةٍ أكثر استقراراً. الرغاية كانت تملكُ بناية واحدة كبيرة، ولكنّ التُّجَّار في الطابق الأرضي حشّوا أعمدتها طيلة التّسعينيّات لتوسِعة محلّاتهم، وعندما جاء الزلزال تهاوَت على ثلاث مراحل، نجح أغلب السّكّان في الهروب. أذكرُ هذا.

***

هل يُعقَل أن يكون أصحاب هذه الملابس المَنسيّة قد ماتوا في الزلزال أو فقدوا بيوتهم؟ لا بُدّ أن شيئاً ما قد وقع لهم، قُتلوا في حادث أو خُطفوا أو ربّما هربوا من البلدة، وعندما وجدتِ الشرطة جثثهم لم ينتبهوا للورقة الصغيرة المَطويّة داخل جيوبهم، الورقة التي تصِلهم بهذه المصبغة.

***

عندما عاد عامل المصبغة بمعطفي، تشجَّعتُ، وسألتُهُ عن الملابس المُعلّقة.

"هذو... عندهم عامين هنا". قال لي.

"واو".

"وهذو"، قال وهو يُشير إلى صفّ على يمين الباب "راهم مخبيين ما يبانوش ... عندهم برّاف ...".

بقي يبتسمُ لبضع ثوانٍ أمام دهشتي، ثمّ ردّد آخر كلمة:

"برّاف".

هذه هي المرّة الأولى التي انتبهتُ فيها لوجود هذه الثياب كلها في المصبغة. كُنتُ أدخل وأخرج دون أن أنظر حولي أو أفتح حديثاً مع العمّال.

***

لماذا ينسى الناسُ ملابسَهم في المصبغة؟

***

المشكلة مع الرغاية ليست فقط في أنّها فَقَدَت بناية عالية في الزلزال، حتّى المساحات الخضراء والمفتوحة التي هرب إليها النّاس من بيوتهم يوم الزلزال، انقرضت اليوم، وصارت كلها بنايات جديدة، إلى أين سيهرب الناس لو ضرب زلزال جديد؟ وأعني هنا زلزالاً حقيقيّاً، وليس تلك الهزّات الأرضية التي تضربُ أربع أو خمس مرّات في العام.

***

عاد العامل المنغولي إلى الداخل، اختفى مرّة أخرى خلف آلات الغسيل الضخمة، حيث تنبعثُ تلك الرائحة القوية. تركَ معطفي داخل كيس بلاستيكي شفّاف. تضاعفَ فضولي حول تلك الملابس المَنسيّة، لكني لم أتوصّل لإجابة. أشياء رهيبة لا يتوقّع المرء أنها تُصيب الناس دائماً، لكنْ، يكفي أن يدخل إلى مصبغة صغيرة وقديمة، ويلاحظ أعداد الملابس المتراكمة عبر السنين، حتّى يعرف أن الأشياء الحزينة تحصل، وتحصل بشدّة، حتّى في الضواحي البعيدة والهادئة.

***

في الأسبوع نفسه، كُنتُ عائدة من الجامعة، أحمل البازوكا - التي أضع داخلها المخطوطات - التي أتلّقى بسببها أغبى التعليقات من المارّة. وقبل أن أصل إلى الدار، قرأتُ على حائط مدرسة، بالقرب من موقف الحافلات التي تعمل على خطّ الرغاية - الجزائر: "10 دينار ماشي 20 دينار ... راهم يسرقو فيكم هذوك الطّمّاعين." وبعدها بيومَيْن، قرأتُ على جدار آخر: "LA BATAILLE D'ALGER EST TOUJOURS LA(*)". لاحقاً، في المساء عندما كُنتُ أقلي أصابع السمك والبطاطا، فكّرتُ أن هنالك ثورةً ستقوم في الرغاية قريباً.

في الليلة نفسها اتّصلتْ بي ماما من بيت أختي في تيبازة، فقط لتطمئنّ. كانت مكالمة قصيرة. وقبل أن أُنهي المكالمة، أردتُ أن أقول لها ابقِي هناك، لا ترجعي، هنالك ثورة ستقوم هنا، لكني لم أفعل. أكلتُ برتقالة ثانية قبل أن أفرِشَ أسناني، وأنام.

***

كان يصلني صوت الغسّالات المكتوم، حركة العمّال أيضاً كُنت أتبيّنها بالصوت. حملتُ معطفي، ونظرتُ إلى الخارج، كان المطر قد اشتدّ، والظلام قد حلّ. صار المحلّ كله مُظلماً. بقيتُ أنظر عبر الزجاج. شعرتُ أنني في إحدى تلك الشقق التي قرأتُ عنها. شقق البرجوازية الصغيرة المكتظّة بالأثاث، والتي تعيش فيها العائلات حياةً كاملة، وهي على حافّة الاختناق، وعندما يأتي الزلزال ينهار كل شيء. نظرتُ إلى بوستر بناية الكانز، ثمّ إلى الملابس القديمة المَنسيّة، تخيّلتُ للحظة أنّي سأجدُ صورة جَدّي الضائعة هنا في المحلّ، والأشياء الضائعة والمَنسيّة كلها التي فَقَدَهَا أصحابها في الزلزال، ثمّ عبرتْ رأسي هذه الفكرة:

---

*) معركة الجزائر لازالت دائماً هنا.

ماذا لو كان هؤلاء العمّال يجمعون الثياب والأشياء للأشخاص الذين سيقومون بثورة في الرغاية، حتّى يُزوّدوهم بكل ما يحتاجونه في ثورتهم؟ وعندما هممتُ بالخروج، سمعتُ صوت العامل المنغولي الذي ظهر فجأةً، وأشار إلى الملابس المَنسيّة:

"على بالك النّاس هذو يجوا كي يبدا الصيف ولاّ كي يخلاص الشتا... يجيبوا الحوايج وينساوهم... ما علابالناش علاش... بابا كان يقول يا يكونوا راحوا للبحر ف الصيف وغرقوا، ولاّ دخلوا ف الشتا وما خرجوش".

البحث عن بَلكون

قبل سبع سنوات، وقبل أن تشتري سلمى شقّتها في القُبّة، كانت قد زارت شقّة ثانية قبلها، تقع في شارع فرعي صغير، بالقرب من مدرسة الفنون الجميلة. شارع غير مَرئيّ تقريباً، اسمه شارع أحمد باي القسنطيني. وبعد تلك السنوات كلها، عادت تلك الشّقّة لمطاردتها في خيالاتها.

عندما التقيتُها لأوّل مرّة - منذ سَنَتَيْن - قالت لي سلمى إن الأحلام والخيالات تُشكّل جزءاً كبيراً من حياتها. لم أفهم في البداية. وجدتُ عبارة "حياة حُلمية" التي كانت تستعملها مُبهمة. لم تكُن تسيرُ في نومها، ولا تقضي وقتها كلها في النوم. بل كانت تتحدّث عن أحلام اليقظة. وعندما صرْنا مقرَّبَيْن، وجدتُ أنها تقضي أغلب وقتها في الشّقّة، تنهض باكراً، وتجلس متربِّعةً على السرير، وتبدأ برسم عشرات السيناريوهات عن أحداث وتفاصيل صغيرة. يبدأ الأمر بخيط صغير، تشدّه، فتبدأ قطعة قماش كبيرة بالتّفسّخ.

"ما نحسّش بالوقت... ننسى روحي... ونغيس في حاجات بزاف"، تقول لي بعصبية.

حتّى هنا كان هذا الكلام كله تعبيراً عن حياة داخلية غنية، لم تخرج أبداً إلى العَلَن، ولم تُشرك سلمى فيها أيَّ أحد، سوى المقرَّبين، وحتّى

هؤلاء اعتادوا على كلامها التّجريديّ وثرثرتها عن حياة متخيّلة كاملة، فصاروا لا يستمعون لنصف ما تقوله.

"نقولك واش نعرف ندير أنا؟ je sais soutenir le néant(*)، هذا هو الـ talent تاعي".

لكنْ، مع الوقت - وفي غفلة من الجميع، بمَنْ فيهم سلمى نفسها - بدأت هذه الحياة الدّاخليّة الغنية تتسلّل إلى الخارج، وتطفو في الهواء. مثل وجودِ موازٍ لحياة سلمى اليومية، كامرأة شابّة تعيش في مدينة الجزائر، وتعمل في شركة أدوية، وتقبض شهرية جيِّدة جدّاً، تكفي لإعالة عائلة كاملة. ورغم أنّنا كُنّا نلتقي كثيراً، نخرج للمشي أو نركب السّيّارة ونبتعد نحو ميناء تمنفوست شرق العاصمة، أين نأكل السمك، ونتمدّد على الرمل، وننظر إلى أولاد الصّيّادين وهم ينظّفون الشاطئ الصغير قبل بدء موسم السباحة، وإلى الرطوبة تغطّي وجه مدينة الجزائر البعيد. لكنّ ما لم أكن أعرفه وقتها هو أن خيالات سلمى وأحلامها كانت قد خرجت وبدأت تقودها مثل كفيفة إلى أماكن ظلّت حبيسة رأسها منذ سنوات.

***

البلكون، كانت هذه الكلمة التي كشفت الأمر كله. قالت لي سلمى إن الأحلام والخيالات صارت تُباغِتها في أوقات عديدة خلال النهار، وتأكّدَتْ أنها مصابة بخَلَل ما، يجعلها تحلم خلال اليقظة بدل النوم، وأنها في الأسابيع الأخيرة صارت تجلس في صالون شقّتها، وتنطلق في عدّة خيالات، تتذكّر مواقف حصلت لها، وتُعيد تفكيكها وتركيبها مئات المرّات. وخلال هذه العملية، وجدت أنها بحاجة لبلكون، منصّة إقلاع

*) أعرف كيف أدعمُ العدم.

وَهْمية تمتدّ مثل لسان من جسد الشّقّة، حيث يمكنها الجلوس هناك أو فتح بابه فقط، والتّأمّل في الأصوات والجوّ في الخارج.

كلّمتْني عن البلكونات الجميلة التي شاهدتْها في إسطنبول، قالت إنها كانت مثل حدائق معلّقة، ومساحةً إضافية ومختلفة لإقليم الخيالات الأوّل: الشّقّة. كُنّا في السّيّارة، نازلين من ميدان أديس بابا، كانت هي مَن اقترحت الطريق، وعندما مررْنا بجوار سور المجلس الأعلى للُّغة العربية، أشارت إلى اليسار، وقالت:

"هنا... هنا كاين دار نحبها".

طبعاً، لم أتمكّن من رؤية الشارع بسبب الظلام وتركيزي في السياقة، لكنها استرسلت في الكلام عن شقّة زارتْها قبل سبع سنوات، وأنها كانت أكثر مكان تطابق مع تصوُّرها عن شقّتها المستقبلية. قالت إن الشارع يُشبه جيباً داخلياً محاطاً بالأشجار والأسوار العالية، وكل هذا الغطاء يمتصّ فوضى المدينة وأصواتها.

وصفت لي بلكون تلك الشّقّة الذي يُطلّ على حديقَتَيْن: حديقة إقامة السفير المغربي وحديقة المجلس الأعلى للُّغة العربية. صمتتْ للحظة، ثمّ سألتْني عن دور ذلك المجلس، فقلتُ إني لا أعرف. ثمّ قالت إنه يمكنني ربمّا البحث عن عمل هناك، فضحكْنا من الاقتراح، ورأيتُ ابتسامتها اليابانية تحت ضوء الإنارة العمومية التي كُنّا نعبر تحتها. تشبه سلمى اليابانيات قليلاً، شَعْرها ناعم ومسترسل، وعيناها تصيران ضيّقَتَيْن وسط الكلام، وجهها صغير، وملامحها دقيقة، لا تُحبّ أنفها، لأنها تجد أنه لا يُناسب هذه الأخيرة.

***

يمتدُّ شارع أحمد باي القسنطيني مثل شريان قصير بين الطريق النازلة من ميدان أديس بابا إلى التيلملي، وبين الطريق الصاعدة من الميدان نفسها إلى الأبيار، وتوجد به بنايات مهجورة كثيرة. وخلال الأشهر الأخيرة، عادت سلمى لزيارته، بالتحديد البناية الأولى على اليسار، حيث توجد تلك الشّقّة. تذهب وتجلس في الدرج دون أن تجد الشجاعة كي تطرق باب الشّقّة، وترى إذا ما كانت للبيع أم لا.

"يا ربك!".

تتشكّلُ على وجه سلمى نصف ابتسامة مُعتذرة.

وهنا عرفت القصّة الكاملة للشّقّة. كانت قد زارتْها مرّة واحدة قبل سبع سنوات، وكان هنالك شيء مشبوه في أوراق المِلْكِيّة. قالت إن صاحب الشّقّة كان يعيش في فرنسا، والرجل الموكَّل بالبيع كان يُماطل بشأن الأوراق، ولم يسمح بزيارة المكان سوى مرّة واحدة. هذا كله كان غيرَ مُريحٍ، فتركت الأمر.

قالت إن الشّقّة لم تتركْها أبداً. حتّى بعد استقرارها في القبّة، وبعد أشهر من السَّكَن وإعادة التصميم وشراء الأثاث، ظلّت تحلم بحياتها الأخرى، وكيف كانت ستمضي بين حديقَتَيْن. بل حتّى إنها كانت تفتح صفحات جرائد الإعلانات على شاشة هاتفها، وتقرأ عن إعلانات شقق أخرى في وسط الجزائر. شقق قديمة بغُرف واسعة وأرضيات خشبية عتيقة وثريّات لامعة، شقق تشبه بواخر قديمة جاءت من بعيد، وَرَسَتْ وسط المدينة، وصارت مقدّماتها بلكونات تُشيرُ إلى الأفق البَحْرِيّ، من حيث جاءت.

"كنت ننوض وسط الليل، ونقعد نحلم ونغيس مع روحي".

تنساها لأيّام أو لأشهر، ثمّ ترجع من جديد. كانت الشّقّة تزورها في أحلام اليقظة، كما يزور الأولياء الصالحون مجاذيبهم في الحضرات. غرفتان وصالون. مئة متر مربّع. نوافذ كبيرة. الغرف واسعة، والبلكون عالم وحده.

قالت إنها رأت زهوراً في البلكون، واستنتجت أن الشّقّة بِيعَت، ومشكل الأوراق ما عاد موجوداً.

"وشكون قال لك اللّي شراها راح يبيعها؟"

"ما علابالیش... بالاك... علاش لا!"

كُنّا نمشي في ليلة صيفية ساخنة، عائدَيْن نحو السّيّارة، وكُنتُ أضحك بصوتٍ مسموع بينما ارتَسمتْ على وجهها ملامح الاعتذار، وصارت يابانيةً من جديد.

***

قرّرْنا أن نذهب لرؤية الشّقّة. وبعد تردّدها وتكرارها لكلمة NON عشرات المرّات، وافقتْ سلمى على المجيء. التقيْنا في شارع القسنطيني صباح يوم أحد مشمس، كان الناس قد خرجوا إلى أعمالهم، ووجدْنا مكاناً لركن سيّارتها، بعد أن طلب منّا الشّرطيّ نَقْلها من أمام باب إقامة السفير.

وجدْنا باب البناية مغلقاً، واكتشفْنا أن ساكني الشّقّة قد وضعوا زجاجاً عازلاً في البلكون. وقفتْ سلمى وسط الشارع، وبدأتْ تتحسّر على البلكون، للحظة بدت لي غاضبة فعلاً. جرَّبتُ ضغط أزرار الأنترفون، لكني لم ألقَ جواباً. تراجعتُ قليلاً، لأرى واجهة البناية التي تتلامس مع أشجار الحديقَتَيْن في الطوابق العليا، كانت بناية من أربعة طوابق.

"فتحوا؟"

"ما فتحوش." أجبتُها.

"هيا نرجعو خلاص...".

"وين ترجعي؟ هذا وين بدينا."

جلسْنا قليلاً أمام البناية في انتظار دخول أحدهم أو خروجه، لكننا لم نرَ أحداً سوى قادة السّيّارات التي تعبر صاعدةً الشارع.

"واش رايك نطلعو نشوفو الفوق إذا كاش ما كاين ديار؟"

"وين؟" سألتُها.

"هنا، ولا لهيه ..." قالت مشيرةً إلى البنايات العالية خلف المجلس الأعلى للُّغة العربية. ثمّ أضافت مُكلِّمة نفسها "je veux un balcon."(*)

وقفْنا من جلستنا، وسرْنا أمام المجلس، كان موقف السّيّارات شبه مهجور، والبوّابة الكبيرة صدئة.

"واش يديرو هنا؟" سألتْني.

"ما علابالیش."

"تقدر تخدم أنتَ هنا؟" سألتْني للمرّة الثانية.

"هممم صعيبة شوية."

"علاش؟ ياك تعرف مليح العربية أنتَ!"

---

*) أريدُ بلكون.

"شوية... ما نعرفش الإعراب بزاف."

"أنا كنت نقرا مليح عربية ف الليسي، من بعد نسيتها كي قريت فارماسي... بصّح نحبها."

"العربية ناس ملاح ... الناس الكل يحبّوها بلا ما يعرفوها."

***

البنايات عالية فعلاً ومتلاصقة، ربمّا 15 طابقاً أو أكثر. لها عدّة مداخل، ومواقف سيّارات، منها واحد أسفل المدخل الرئيس. صعدْنا الدرج، ووقفْنا في المدخل، حيث قابلتْنا عشرات علب الرسائل الرّماديّة، والتي تحمل مربّعات برتقالية صغيرة، كُتِبت عليها أسماء أصحابها.

كان المدخل واسعاً، يتوسّط رواقاً طويلاً، به مكاتب، أبوابها مفتوحة. قرأنا ما كُتب على لافتة سوداء كبيرة:

الصندوق الوطني للمعاشات

CAISSE NATIONALE DES RETRAITES

ثمّ تقدّمْنا قليلاً لنشاهد حركة الموظّفين في الرواق، ونقرأ بقية اللّافتات، فوجدنا لافتة بيضاء، كُتب عليها:

قسم تعدّد الزوجات، والدفع للأجانب

DIVISION VEUVES MULTIPLES ET PAIEMENT " ETRANGER "

"واش هذا؟" سألتني سلمى وهي تضحك.

"المفروض veuve هي أرملة مشي ضرّة ولا زوجة ثانية، وواش دخّل الدفع للأجانب؟ واش يدفعولهم؟"

"ما علابالیش... زعما يبيعولهم ديار هنا؟"

تقدّمْنا نحو أحد المكاتب، فوجدنا امرأة محجّبة تجلس أمام حاسوب قديم، دخلت سلمى تسألها إذا ما كانت توجد نقابة في هذه البناية، أو مكتب يُعنى بشؤون الساكنين؟ بينما بقيتُ أنا في الرواق أحاول الاتّصال بزميلي في العمل، لأخبره أني سأتغيّب اليوم.

كُنّا نبحث عن الساندیكا، تلك هي كلمة السّرّ في البنايات القديمة في الجزائر، رغم أن تلك البناية لم تكن قديمة (بُنِيَت في الخمسينيات أو السِّتِّينيَّات) مثل بنايات وسط الجزائر التي تعود لنهاية القرن 19 وبداية القرن العشرين.

خرجت سلمى، وأشارت بيدها إلى أعلى، فقلتُ وأنا أُبْعِدُ الهاتف عن وجهي:

"راني جاي."

صعدتْ سلمى، وأكملتُ أنا المكالمة واقفاً أمام لافتة تعدّد الزوجات والأرامل. بعد دقيقة لحقتُ بها. لم أكن أعرف رَقْم الطابق، لكني صعدتُ حتّى وجدتُها واقفة، ربّما في الطابق الرابع أو الخامس.

كان الطابق مُظلماً قليلاً، وكانت سلمى تقفُ أمام الباب الذي على اليسار، والذي تقفُ في إطاره امرأة سمراء، بشَعْرٍ قصير، وجُبّة زرقاء

واسعة. عندما وصلتُ، بقيتُ واقفاً على الدرج حتّى لا أقطع طريق النازلين، كانت صاحبة الشّقّة تُودّع امرأة أخرى، تخرجُ من بيتها. ربّما كانت جارتها.

"ابقاي على خير"، قالت لها الجارة، وصعدت الدرج بعد أن تفحّصَتْنا مبتسمة.

بعد هذا استدارتْ صاحبة الشّقّة، كانت جميلة فعلاً. في الأربعين ربّما. سمراء بشَعْر قصير جدّاً، مثل طفل في الخامسة. أنف صغير فوق عينَيْن سوداوَيْن لامعَتَيْن. بدا جسدها مُمتلئاً. قالت:

"اسمحي لي هذي جارتي، المفيد... واش كُنّا نقولو؟" ثمّ نظرت نحو سلمى ونحوي بفضول.

بلَعَت سلمى ريقها، وقالت:

"إيه... الدار..." ثمّ استدارتْ نحوي مُضيفةً "هذا أمين راجلي."

ابتسمتُ حتّى لا أضحك في وجه المرأة، وأفضح أمرنا.

"... ورانا نحوسو على دار هنا، وقالوا لنا بلّي أنت هي الساندیكا، مدام سامية، اسمحي لنا بالاك قلقناك..."

"non non، معليش. حبّيتي تشري هنا؟" قالت المرأة ونظرت نحو سلمى وهي ترفع حاجبها الأيسر، وتبتسم.

"ما علابالیش... تعرفي، أنا كنت شفت appartement عجبني هنا في حومتكم، التحت شوية كيما وين l'ambassade..."

"وين يسكن l'ambassadeur." قاطعتُها مبتسماً.

"إيه... وين يسكن، وكاين دار كنت شفتها بكري قبل ما نشري داري اللّي راني فيها..."

"وين جاية دارك؟"

"القبّة... قاريدي."

"مليحة قاريدي! سكنت فيها، بصّح كانوا عندي جيران يا لطيف!" تقول مَدام سامية، وهي تُقلِّبُ عينَيْها نحو السقف.

"آه أوكي. هيه، قلت لك شفتو وعجبني وعنده بلكون شباب، جاي بين deux jardins(*) شابين بصح ما قدرتش نشريه على خاطر كوارطو ما كانوش باينين، وأنا كنت مزروبة."

تهزّ مدام سامية رأسها باهتمام.

"ودوكا راني حابّة نشري دار جديدة، يكون فيها بلكون، ما عنديش بلكون في داري هذي، وراني حابّة بلكون."

"علاش حابّة بلكون؟"

"آآآآ... باش نقدر نطلّ على الدنيا برّا."

"أنا ما عنديش بلكون هنا، كان عندي واحد صغير ف البيت تاع وليدي ونحّيتو."

"آها... أنا راني حابّة بلكون."

---

*) حديقتان.

"ودارك مليحة؟ جيرانك ملاح؟"

"ملاح، إيه."

"علاش حابّة تبدلي مالا؟"

تصمتُ سلمى. بدا كأن تلك الحياة الدّاخليّة اختفت فجأة.

"حابّين نقربوا للسونتر." قلتُ لها.

"آه... صح هنا رانا قراب لكُلّش، وبعاد على الحس."

"هذا واش رانا نحوسو."

"أنا كنت نسكن في بومرداس قبل الزلزلة، ومن بعد في دالي براهيم ومن بعد في قاريدي، بصّح غير هناااللّي صبت راحتي وولادي كلش يجيهم قريب."

"مليح." قالت سلمى مبتسمة "وعندكم ديار للبيع؟"

"راكي مزروبة؟ ما علابالیش، أنا ساندیكا يعني، ما نبيعش الديار، بصّح نقدر نشوف لك، وقيل عندنا دار هنا ف الدوزيام" وأشارت إلى قدميها "تاع ورثة بالاك حابين يبيعوها، بصح لازم تكوني واجدة، دراهمك واجدين؟"

"يعني. نبيع داري لازم باش نشري."

"آآآآه... هذا الشي لازم تبيعي، صعيبة شوية هكا..."

"هيه نعرف." تقول سلمى وتبتسم بحزن.

"هممممم، بصّح خليني نخمم. هي حتّى لو كان تشريها الدار هذيك لازم خدمة. وحتّى داري هذي كيشريتها عاودتها. تحتاج دراهم وخدمة. السقف عاودتو... بصح الطاقة الكبيرة تاع الكوزينة ما مسّيتهاش... بزاف جيراني قلعوا الحطب وبدلوه بالأليمنيوم... ما تحتاجيش أنتِ، الحطب هذا مليح، خلاّتُه فرنسا، أنا بدّلت الزجاج برك، كان 2 ملم نحّيتو وجبت 5 ملم..." وهنا تُقرِّبُ مدام سامية سبّابتها وإبهامها من بعض، وتُضيِّقُ عينَيْها، وكذلك تفعلُ سلمى التي تُتابعها باهتمام قبل أن تقول:

".intéressant ...آها"

"إيه... بصّح عييت بزاف مع الأول، وزيدي غير ما وصلت داروني ساندِيكا، قلت لهم نشد ساندِيكا تاع وين راني ساكنة برك... على خاطر كاين ربعة باطيمات لاصقين في بعضاهم. وين نروح يعطوني نشد الساندِيكا..." نسمعُ صوت باب يُفتَح في الطوابق العليا، فتمدُّ مدام سميرة رأسها عبر الدرج، وتصرخ:

"صباح الخير عمي فاتح!"، ليُردَّ صوتٌ واهنٌ التّحيّة من مكان مظلم وبعيد في الأعلى.

"المفيد... الديار يحبّو الدراهم، لازم توجدي زوج ملاير... زوج ملاير وشوية باش ما تراطيش الديار الملاح."

"زوج ملاير؟"، تسأل سلمى نفسها دون أن تنظر لمدام سامية. وأبتسمُ أنا متذكّراً مشكلتها مع الأسعار. دائماً ما تخلط بين الدينار والسنتيم، بالإضافة إلى مَيْلها الدائم للتفكير بأن الأشياء رخيصة الثمن، وليس العكس. تلاحظ مدام سامية حَيْرتها، وتسألها:

"تحبّي تشوفي؟"

"آآآ... واش؟"، تقول سلمى وتُنقِّلُ نظرتها بيني وبين مدام سامية.

تتراجع الساندیكا خطوة إلى الوراء، وتفتحُ الباب وهي تقول مبتسمة:

"داري!"

تستدير، وتطلب منّا أن نتبعها.

دخلْنا إلى المطبخ. كان بلاط الأرضية القديم والملوّن لامعاً، وهنالك سطح رخامي داكن اللون يمتدّ تحت الواجهة الزّجاجيّة كلها. المطبخ نظيفٌ وخالٍ من الروائح، ويتدفّق فيه ضوء باهر. اليوم جميل، والساعة كانت قد تجاوزت منتصف النهار. بدأتُ أشعر بالجوع. تقتربُ مدام سامية من النوافذ الكبيرة - التي تشبه البلكون - وتقول:

"هنا تقدري تمشي بلا حوايج إذا حبّيتي..." تضحكُ قبل أن تضيف "هذي الباطيمة الكحلة أنا نسمّيها le ministère fantôme(*)، ما تقلّقش..."

"تاع واش؟"

"تاع الصناعة ولاّ ما علابالیش، ما فيه حتّى واحد... بصّح ما يهمش، شوفي منّا..." تُشير ناحية اليمين، فأقتربُ مع سلمى من النوافذ. البحر ممتدٌّ، يعكس زرقة السماء، ويظهر من خلف ومن فوق وزارة الأشباح ومن حولها.

نرى البحر كما لم نرَه من قبل، أزرق لامعاً تحت الشمس.

أقفُ أمام مدام سامية التي ترفعُ جبَّتها الخفيفة قليلاً، وتسنِدُ يَدَيْها

---

*) الوزارة الشبح.

على حوضها. ننظر كلّنا في صمت إلى تلك الزرقة اللّامعة كلها، بينما تقفُ سلمى منبهرةً من المنظر، واضِعةً يَدَيْها على الرخام، وتُغمِضُ عينَيْها للحظة، ثمّ تفتحهما.

"واو."

تقول سلمى، ثمّ تبقى صامتة حتّى خروجنا من عند مدام سامية، نتبادل أرقام الهواتف، ونشكرها. ننزل الدرج، فأسأل سلمى عن رأيها في الشّقّة والحديث كلّه، أقول لها إنّي صدّقتُ أننا زوجان يبحثان عن شقّة، فلا تُجيبني سوى بـ:

"شُفت البحر شحال شباب؟"

في الطابق الأرضي، نلتقي بالموظّفة التي وجّهَت سلمى إلى مدام سامية، فتقول لنا:

"تقدرو تروحو تشوفوها دوكا، هذا وين جات مدام سامية، عندها يا ربي زوج دقايق كي فاتت عليَّا."

"هذا وين كنّا معاها في دارها، حكينا معاها مليح، يعطيك الصحّة."

تنظر الموظّفة إلى سلمى بنظرة غريبة، ثمّ تتساءل:

"مع شكون؟ دار شكون؟ ما كانتش ف الدار مدام سامية، هذا وين طلعت راني نقول لك أختي."

أنظر إلى سلمى، وتنظر نحوي، فتقاطعُنا المرأة:

"واش من étage(*) طلعتو؟"

"واش من étage طلعنا؟" تسألني سلمى.

"ما علابالیش... شوفي أنتِ، أنا تبّعتك"، ثمّ أقول للمرأة: "الرابع ... شكّيت."

"لالا أختي، أنا قلت لك السابع. الرابع ما يسكن فيه حتّى واحد."

تصمتُ سلمى، ثمّ تُجيب متردّدة:

"ما علابالیش، أنا كنت طالعة صُبت المرا هذيك سقسيتها إذا عندها بلكون في الدار، قالت لي إيه. من بعد قالت لي جارتها بلّي هذي هي مدام سامية الساندیكا."

تتعجّبُ موظّفة المكتب من كلام سلمى، وقبل أن تقول شيئاً يرنّ هاتفها، فتستأذنُ وتدخل المكتب لتُجيب. أبقى واقِفاً مع سلمى وسط الرواق. ناس رايحة ناس جايّة. أنظر لسلمى، وأضحك، فتتردّدُ قليلاً، ثمّ تُبادلني الضحك، تقول لي:

"هيّا نروحو."

---

*) طابق.

هذه أمور تحدث

الجدارمية خنقوا الطريق، الناس عادوا يخافوا يخرجوا من ديارهم. هذا ما تقوله لي زينب كل مساء عندما تعود من العمل. مُنهكَة تسبُّ وتشتم الحواجز الأمنية التي تُغلقُ الطريق. تجلس إلى طاولة المطبخ، وتقول:

"الجدرامية خنقوا الطريق، الناس عادوا يخافوا يخرجوا من ديارهم."

كل ستّة أشهر هنالك حاجز أمني جديد في الطريق الرابط بين الرغاية ووسط الجزائر. زينب تعتقدُ أن الجدارمية والشرطة يريدون فَصْلَ الضاحية الشّرقيّة للعاصمة عن وسطها، أقول لها بأنها مفصولة جغرافياً، وأطراف العاصمة اليوم كلها - الرغاية والرويبة - لم تكن تتبعها قبل عشرين عاماً. تتركني أُكمِل كلامي، غالباً ما أكون أطبخ أو أُحضّر شيئاً للعشاء، تتقدّم من القدر على النار، تشمّ الرائحة، وتقول:

"مشّي كيف كيف... نهار عرفتك، كانت الطريق مغلوقة الصباح برك... كي تزوجنا كانت تتغلق الصباح وساعة يجو الجدارمية وساعة ما يجوش... ضُرك راهم ف الطريق كل يوم والطريق صباح وعشية مغلوقة."

أنا لم أكن مَعنِيّاً بالطريق والحواجز الأمنية في المدّة الأخيرة، كُنتُ أبقى في الرغاية، في الدار غالباً، وعندما أخرج لأجل موعدٍ أو عمل،

آخذ القطار. نملك سيّارة واحدة، ماروتي حمراء قديمة، وكانت زينب هي مَنْ تقودها.

***

سكّة الحديد - أو الرَايَة كما نُسمّيها (انطقوا الرّاء على طرفِ لسانكم) - تقسِمُ الرغاية نصفَيْن. الشمال والجنوب، الشمال يمتدّ حتّى البحر والجنوب يلتصق بالمنطقة الصّناعيّة، ويفتح على الطريق السريعة المؤدّية إلى وسط العاصمة. عشتُ حياتي كلها في الجهة الشّماليّة، في حَيّ الونشريس أو ما يُعرَف بالـ DNC وهو اسم شركة البناء الوطنية التي بنَت مئات الأحياء عبر البلاد. عشتُ ودرستُ وتسكَّعتُ هناك.

لم أعِشْ في الجهة الجنوبية سوى في الأشهر الأخيرة، عندما تركْنا زينب وأنا حسين داي، وانتقلْنا إلى الرغاية، إلى شقّة مدام بلعمري - صديقة والدتي وأستاذتي للُّغة الفرنسية سابقاً في اللّيسي. شقّة صغيرة، الباب يُفتَحُ على صالون 9 م²، والذي بدوره يُفتَح على مطبخ أصغر وحمّام أصغر من المطبخ وغرفة 8 م². الحَيّ كله هكذا، بُنِي في الخمسينيات، مثل جحور أرانب. لم يُزعجْنا الأمر، المكان يكفيني مع زينب، عكس العائلات التي تعيش في الحَيّ منذ سنوات، لا أعرف كيف يتحرّك ويعيش خمسة أو أربعة أشخاص داخل هذه الشقق. الإيجار كان رخيصاً، ومدام بلعمري مسافرة طيلة الوقت عند ولدها وابنتها في فرنسا. وفي الليل عند هدوء الشوارع وحركة النّاس، يصلني صوتُ السّيّارات القليلة، التي تقطع الطريق السريعة غير البعيدة، مثل صوتِ جريان نهر لا يتوقّف.

الرغاية بعيدة، في الحقيقة 33 كلم ليست بالمسافة البعيدة، لكن

اختناق الطُّرُق المؤدّية إلى وسط العاصمة في النهار يجعل الطريق عذاباً. زينب واصَلَتْ استعمال الماروتي، هي مَنْ تعمل كل يوم، وبجدول توقيت ثابت، أمّا أنا، فعدتُ لاستعمال القطار. الرغاية آخر محطّة قطار في العاصمة من جهة الشرق، وأكبرها من حيث عدد المسافرين، الناس هنا يردّدون المَثَلَ نفسه منذ الثّمانينيّات: تبّع الرَاية توصل للرغاية.

***

لم أقُم بعملٍ كثير في الأشهر الأخيرة. عشتُ على مُدّخرات السنة الماضية، ولهذا السبب أيضاً تراجعْنا إلى الرغاية. آخر شيء قُمتُ به كان العمل في الأستوديو لتسجيل فرقة راب من الحرّاش، اسمها "بوروباز". كُنت أركَبُ القطار بحقيبة معدّات صغيرة. كُنّا ننتهي كل ليلة من التسجيل في وقتٍ مُتأخّر، ورغم السّيّارات كلها التي كانوا يستعملونها في تصوير الكليب، إلاّ أنهم لم يُوصِلُوني ولا مرّة، كُنتُ أطلبُ طاكسي، وأعود. حتّى المبلغ الذي جاء من الإنتاج لم يكُن مُهماً.

خلال هذا الوقت كله، كُنتُ أحاول تأجير المعدّات، هكذا يفعل الجميع، عندما لا تُحارب أكْري سلاحك. بقية الوقت كُنتُ أخرج ومعي السلاح الوحيد الذي لا أُؤجّره، مُسجّل الصوت ZOOM h4، أمشي نحو محطّة القطار، وأحاول التقاط الأصوات هناك. صافرات القطارات. احتكاك العجلات على الرّاية. صوت الإنذار قبل إغلاق الأبواب. كُنتُ أحمل الـ ZOOM في كل مكان. في السوق أيضاً، وأُسجّل أصوات الباعة وأحاديثهم. الفكرة في رأسي غير واضحة، لكنْ، يُمكن أن أختصرها في كوني أريد تسجيل أصوات البلدة التي أعرفها، مثلاً يُمكنني أن أبدأ من المنطقة الصّناعيّة، ثمّ أقطع البلدة كلها، من المحطّة للسوق للمقاهي ومحطّة البنزين الصغيرة، ثمّ أصوات تلاميذ اللّيسي والابتدائي

حتّى أصل إلى البحيرة البعيدة وخلفها البحر. وستكون هذه الأصوات كلها مادّةً للعمل على شريط صوتي، يأخذُ المستمع في رحلة عبر الرغاية.

أخرج وأمشي نحو وسط الرغاية. الطريق إلى وسط البلدة شبه خالية إلّا من تلاميذ اللّيسي، على اليمين توجد الأحياء والعمارات، وعلى اليسار توجد المصانع، وفي منتصف الطريق - على اليسار - تتفرّع طريق الزوافرة، طريق ضيّقة، تمتدّ بين البوّابات الخلفية لعدد من المصانع، وتنتهي بسور حديدي للرّايَة، لو تصعد فوق الجسر الصغير الضّيّق ستخرج في الجهة الأخرى من البلدة. يذهب إليها الناس، كي يختصروا الطريق، أو كي يزطلوا، أو كي يغدروا بأحدٍ ... أو - وفي الأمر مُخاطرة - حتّى ينيكوا خلف خرابةٍ ما.

***

في الصباح خرجتُ للقيام ببعض المشتريات اللّازمة للمطبخ والدار. الرغاية عندها سوق مليح. ليست عندي رغبة في تسجيل أيّ شيء. بعد دورة خفيفة في السوق، اشتريتُ فيها زوج كيلو مندرين، وربع كيلو زيتون أسود، وعُلبة جُبن كاممبير تاسيلي، وقفتُ أنتظر مع النّاس الحافلة الصغيرة التي ستُعيدني من حيث أتيتُ، وقبل أن تأتيَ الحافلة، اتّصل بي زكي، الذي لم أرَه منذ عام بعد أن ترك الجزائر، وصار يعيش في وهران.

"صحّة مولاي." دائماً ما يبدأ جُمله بكلمة مولاي، لا أدري من أين جاء بها، ربّما من بلاتو تصوير مسلسل تاريخي ما.

"صحّة عمّو، واش راك؟"

"لاباس، لاباس، هذي غيبة، وينك؟".

"الرغاية!"

"وين ف الرغاية؟"

"علاش؟ الرغاية رغاية!"

"راني ف الرغاية أنا تان!"

لم أكن أنتظر إجابة مماثلة. قلتُ:

"الرغاية؟ علاش؟ كيفاش؟"

"أرواح من بعد ساهل. راني كيما القهوة اللّي كنّا نقعدو فيها. تصيبني في كليو زرقا."

أنظرُ إلى ساعة يدي: 10:30. أتعجّبُ من الاتّصال المُفاجِئ. أنظرُ إلى الأكياس الخفيفة في يدي، ثمّ أتحرّك. عندما أصل إلى القهوة، التي تقعُ في ساحة البلدة، أجد سيّارة كليو قديمة زرقاء، سنة 97، مركونة على حافّة الساحة. يخرج زكي عندما يراني في المرآة العاكسة. شَعْره طويل وهائش، وجهه غَرَّتُهُ لحية غير كثيفة، يضعُ نظّارة شمسٍ مُستديرة كالعادة. كتلة شَعْر كبيرة ضاحكة. يلبسُ تي شيرت أزرق، عليه غرافيتي أبيض لصورة بروس لي. قامته متوسّطة، وكتفاه عريضتان. نتعانقُ بوُدّ كبير، ثمّ أنتبه أنّه ليس وحده.

امرأتان. وَحدَة راكبة من قُدّام، والثانية من الخلف.

"ليلى... آن..." يقول لي.

ليلى من الأمام، وآن من الخلف. ليلى سمراء، بشَعْر أسود، لا أتبّينُ وجهها الذي اختفى خلف نظّارة شمسية سوداء كبيرة. أمّا آن، فتملكُ وجهاً صغيراً، بفمٍ صغير، وأنف صغير، وعينَيْن مُلوّنَتَيْن صغيرتَيْن، وجهٌ يُشبه وجوه القطط. لاحقًا سأرى نقاط نمشٍ عديدة تتناثرُ تحت جفنَيْها، وفوق أنفها.

"مون آمي يحيى!" يقول زكي وهو يدعوني لركوب السّيّارة.

أمدُّ يدي، وأصافحهما عبر الباب والنافذة، ثمّ أركب جنب آن. نتبادلُ السلامات والأسئلة الاعتيادية، ثمّ يقول زكي إنَّ آن فرنسية، ويسألني ماذا أفعل اليوم؟ أُجيبه بأني لا أملك برنامجاً، ما عدا الطبخ ومشاهدة فيلم. تُراقبني آن مبتسمةً. تلبسُ قميصاً أزرقَ واسعاً وسروال جينز قديماً. أكمام القميص مَثنيّة، وتكشفُ عن بياضِ ذراعَيْها الطويلَتَيْن، وعليهما زغبٌ أشقر خفيف. أُلاحظُ معصمها، رقيقٌ جدًّاً، ثمّ أصابع يدها، رقيقةٌ أيضاً وطويلة. أظافرها نظيفةٌ ومقصوصة.

لا أفهم سبب مجيئي، أُخمِّنُ أن زكي يعمل مع الفتاتَيْن على مشروعٍ ما. لكنْ، لا أثرَ لمعدّات الصوت في السّيّارة، أقول ربّما وضعها داخل الصندوق في الخلف. يتفقّدُ زكي هاتفه، ثمّ يُخبرني بسبب اتّصاله بي. يستدير وقد نزَعَ نظّارته، وبدَتْ عيناه المرهقتان دائماً. آن مُصوِّرة فرنسية، زارت الجزائر قبل عشر سنوات، خلال ربيع 2003، وعاشت زلزال بومرداس وصوَّرته. تنقّلتْ مع أصدقاء لها بين الرغاية وبومرداس، وصوّرت البنايات كلها التي تصدّعت وانهارت. الأطلال وأهرامات الرُّكام، هذه الأشياء كلها. وعادت في بداية السنة الجارية، كي تُصوِّر الأماكن نفسها بعد عشر سنوات. أسأل عن سبب اهتمامها بهذا، تقول إنّها تعلّقت بقصص أصدقائها في الجزائر، أسألُ أكثر، وأُلحُّ في السؤال،

فتقول إن أصدقاء آخرين في المركز الثّقافيّ الفرنسي - ومن بينهم ليلى - عرضوا عليها فكرة معرض صورٍ عن الزلزال.

"آها..." أُجيبها، فيما تُحافظُ هي على ابتسامتها الهادئة.

يقول زكي إنّه يريدني في عملٍ صغير، هو يعمل فيكسور مع آن وليلى منذ أسبوع، على زيارة بعض الناس، وتسجيل قصصهم حول الزلزال، لأنّ آن تريد إنتاج شريطٍ صوتيّ حول الرحلة وفترة التصوير. يُخبرني أنهم زاروا أماكن في بومرداس، أعادت الدولة إعمارها. ولكنّهم يريدونني أن أدلّهم للوصول إلى شاطئ، كُنتُ قد أخبرتُ زكي عنه منذ سنوات، رَمَتْ فيه سلطات ولاية بومرداس رُكام البنايات كله وأطلالها التي تهدّمت.

"? tu te souviens"(*)

يسألني زكي، ثمّ يُضيف "مولاي". فأهزُّ رأسي.

"!super"

تُطلقُ ليلى مثل طفلة صغيرة فَرِحةً بجلوسها على المقعد الأمامي. أفكّر قليلاً قبل أن تُقاطع ليلى تفكيري مُردّدة أنّهم سيدفعون يومي، ولن يُضيِّعوا وقتي. أبتسمُ لها، ثمّ أقول لآن إنّها يُمكن أن تُصوِّرَ هنا إذا أرادتْ، تقول إنّها لم تفهم.

"On a construit cette placette à la place des deux immeubles qui se sont effondrésdans le dernier séisme."(**)

---

*) هل تذكُر؟

**) لقد بُنِيَت هذه الساحة فوق مكان البنايَتَيْنِ اللّتَيْنِ انهارتا في الزلزال الأخير.

أقول لها.

تعمُّ حالةٌ من الدهشة في السّيّارة، أشعرُ بسخافة الموقف، يقول زكي إنّ هذا غاب عن باله فعلاً. وفي لمح البصر، تحملُ آن كاميرتها، وتهمُّ بالخروج من السّيّارة، لكن زكي يطلبُ منّها الانتظار قائلاً إنّ هنالك مركز شرطة على بُعْد خمسين متراً.

"je vais faire un tour, et essaye de prendre des photos en gardant la vitre à demi baissée."(*)

يقول لها وهو يُشغِّل المحرّك ويراقب الطريق عبر المرآة العاكسة. تفتحُ آن نافذتها حتّى النصف، ثمّ تنظر نحوي بامتنان، أريد أن أُخبرهم أني أرغبُ في الذهاب إلى الدار، كي أطبخ وأشاهد فيلماً وأنام. يدخل صوت الشارع من النافذة، الأشجار التي تُحرّكها الريح وأصوات المحلّات القريبة. ينطلقُ زكي مُنساباً بين سيارَتَيْن، ويبدأُ دورته البطيئة حول الساحة.

***

قبل عشر سنوات، لم تكن هنالك حركة سيّارات تُذكَر في المنطقة كلها، ورغم هذا، فالحواجز الأمنية كانت قد تركّزت في مخارج البلدة. قبل أن يسافر كريم إلى فرنسا، ويتباعد طريقي مع مراد. كُنّا نلتقي في الشارع الأوّل على اليسار عندما تنزل من محطّة القطار، قبل البوسطة، كُنّا نُسمِّيه طريق التِّنِس، لأن ملعب تِنْس صغيراً يقع في منتصفه. لا يُمكنك أن تُوقِف سيّارتك هناك خلال النهار. ستُعطِّل السَّيْرَ، وتجلب انتباه العشرات الذين ينتظرون دورهم لدخول البوسطة، ثمّ تأتي الشرطة،

*) سأدور بالسّيّارة، وحاولي التقاط صور عبر النافذة نصف المفتوحة.

وتأخذ سيّارتكَ. لكنْ، في الليل، بدءاً من صلاة العشاء، لا أحد يمرُّ من هناك.

كُنّا في سنتنا الجامعية الأولى وقتها. ينتظرنا مراد في سيّارته. ونذهب إلى حسين داي، حيث كُنّا نشتري الزطلة، ونعود بها، كل ليلة، عابرين الحواجز.

الثامنة مساءً بتوقيت الشتاء، أركب من الأمام في الماتيز الصفراء، وكالعادة عند نهاية الشارع، حيث ينتهي ملعب التِّنْس، ويبدأ مقرّ شركات طحكوت، أقرأ اللّافتة البيضاء التي تُشير إلى اليمين:

الجزائر 33 كلم

كُنتُ أشعر بفرحة خفيّة، تجعلني أبتسم.

لم يدُم الأمر طويلاً، تفرّقْنا بعد السنوات الثلاث الأولى. هاجر كريم، وسحبتْنا الحياة -مراد وأنا - كلّ في طريق مختلف، وبقيتُ وحدي أركب القطار، وأتسكّع هنا وهناك، باحثاً عن شيءٍ أشغفُ به. حتّى اصطدمتُ في زكي ذات يوم. كُنتُ أجلسُ في مقهى لا يحمل اسماً بالقرب من شارع فيكتور هيغو، عندما جلس إلى طاولتي، وفتح معي حديثاً حول الموسيقى، ثمّ طلب بلُطف إذا كُنتُ أقبل تسجيل صوتي، وأخرجَ عندها آلة الـ ZOOM، كُنتُ أوّل مرّة أرى شيئاً مماثلاً.

"واش تدير بصوتي؟" سألتُهُ متردّداً بينَ الشّكّ والاهتمام.

"والو... نحبّ نسجّل الصوت تاع النّاس." قال بصدق.

كان ذلك أوّل درس، لا تخدع أحداً، لا تُسجّله خِفيةً، ولا تُصوِّره وهو

غافل. وَاجِهِ النّاسَ، واحكي معاهم وابني معاهم كونتاكت، من بعد اطلب الإذن أو تصرَّفْ وحدَكَ إذا ارتاحوا لك. تماماً مثلما تُقبِّلُ امرأة، لا تسرق القُبلة، اِخْلِقِ الكونتاكت، ثمّ تصرَّفْ بتلقائية.

ومن يومها، انتقلتُ إلى الجهة الثانية، صرتُ الرجل الذي يضغط على زرّ التسجيل، ويحرص على ألّا يُصدِر أدنى صوت حتّى لا يُشوِّش على الذي يتكلّم. علَّمني في يومَيْن كيف أستعمل المُسجِّل، وكيف أحمل الميكروفون، وأساعده في بلاطُوّات التصوير على التِقاط الصوت. قال إنيّ طويل، عريض الكتفَيْن، وأصلحُ للعمل. استعملَ كلمة carrure والتي بدَت لي قريبة من كلمة carrière، وشعرتُ أنّ الـ carrure يُمكن أن تقود لـ carrière. صِرنا لا نفترق من يومها، أسيرُ أنا حاملاً الميكروفونات، وهو يتبعني، ويُوجِّه حركتي:

" يمينك ... شَمَالك ... قُدّامك ... وْرَاك ... عندك! احبس! روح!".

ومع الأيّام، تعلّمتُ كيف أساعده في المونتاج، ثمّ صار يُرسلني وحدي لأعمل على التقاط الصوت في بلاتو تصوير إشهار أو فيلم قصير. نسيتُ ما درستُهُ في الجامعة، والتحقتُ بدوراتٍ تكوينية في الصوت. صرتُ أعمل وحدي أغلب الوقت، زكي لم يعُد حاضراً في المجال كما في السابق، ثمّ انتقلَ للعيش في وهران قائلاً إن العيش في العاصمة صار مُمّلاً وثقيلاً بالنسبة إليه. لكننا حافظنا على علاقة متينة رغم المسافة.

بعد سَنَتَين من أوّل لقاء بزكي، اصطدمتُ بزينب. سمراء طويلة، وجهها صغير، كل شيء في ملامحها صغير، الأنف أيضاً، صغيرٌ يمتدُّ نحو الأعلى، النّيف في رياض الوجنة عسّاس،كما تقول قصيدةٌ

قديمة. تُدرِّسُ الإنجليزية في مدارس خاصّة، وتُحاول التسجيل في قسم الدكتوراه، ولا تُريد العودة لتيارت، مدينتها التي تركتْها بعد الباك. خرجْنا ودخلْنا مع بعض. ذهبْنا إلى وهران، كي نحضر حفلة أقامها زكي، وفي آخر السهرة، كانت ترقص على ريميكس أُغنيّة راي قديمة تقول:

وأنا بحر عليّا وأنتِ لا... زيد يا الكاويني زيد

التّفّاح طايب وأنا قالوا لي خضر... زيد يا الحارقني زيد

بَحَثَتْ عنّي بعينَيْها، وعندما التقتْ نظراتنا وضحِكت لي، عرفتُ أنّها هي. تزوّجْنا بعدها بمدّة قصيرة.

جرّبْنا حظَّنا في العيش قريباً من وسط الجزائر، حيث تعملُ هي، وحيث أرى أنا أصحابي، وأسترجع مالي من شركات الإنتاج المُستقرّة هناك. صمدْنا عاماً، ثمّ تراجعْنا. وجدْنا شقّة أرخص سِعْراً. عُدتُ إلى الضاحية، التي تُشبهني. تراجعْنا إلى حدود العاصمة. إلى الرغاية، آخر حصن شرقي للمدينة.

عشرُ سنوات كاملة مرّت منذ الزلزال، منذ أن كانت الطُّرُقات نحو وسط العاصمة خالية، ومنذ تحرّكتْ حياتي خارج الرغاية، ثمّ عادتْ إليها، وبين التاريخَيْن لم يتغيّر شيءٌ سوى أنّي خرجتُ وحيداً، وعُدت أحملُ مسجّل ZOOM، وبرفقتي امرأة.

حتّى مراد وكريم صارا من الماضي. كريم لم أره منذ أن سافر، وآخر مرّة التقيتُ فيها مراد، كانت عندما زُرتُهُ في السيبار كافي الذي يُديره برويبة. قال لي إنّه يعمل هناك منذ سنوات، تزوّج، واشترى سيّارة،

وتخلّص من أوهام تغيير المهنة والعيش في مكان وظروف أفضل. مراد أسمرٌ بجسدِ عدَّاء، وضحكتُهُ جميلة، لا يتكلّم كثيراً، ولكنّه يلاحظ كل شيء من تحت الكاسكيت الذي لا يُفارق رأسه. كان السيبار كافي خالياً في الصباح إلا من ثلاثة أو أربعة زبائن. البشرُ لا يملكون سُلطة على صباحاتهم، المدرسة والعمل يقتلان كل شيء. تحدّثْنا قليلاً عن كريم، قال إنّه فَقَدَ أثره أيضاً. ثمّ قال لي، كأنّه يُكمِلُ حديثاً قديماً بيننا:

"راك تشوف الطفُل هذاك ..." قال وأشار بيده إلى شابٍّ يلبس سترة حمراء، ويجلس في آخر المحلّ.

"إيه... واش بيه؟".

"كي يجي خارج نقولك واش بيه ...".

كان الشّابّ يُشاهد شيئاً على الشاشة، ويسنِدُ رأسه على يده، كان يجلسُ في آخر كومبيوتر، تقريباً في الجزء المظلم من المحلّ، وقال لي مراد إنه يأتي كل يوم. حاولتُ تخيّل ما تعرضه شاشة الكومبيوتر، بورنو؟ مواقع جهادية؟ عندما قام الشّابّ، طلب منّي مراد أن ألاحظ عينَيْه. كانتا حمراوَيْن قليلاً. لم ينطق حرفاً، وضع المال على الكونتوار، وخرج.

"ها؟" قُلتُ لمراد.

"يجي كل يوم، يقعد ساعة وهو يبكي وراسه هابط، تعرف واش يشوف؟ الماتش تاع دزاير مع مصر في 2009." ثمّ أضاف ساخراً: "ملحمة أم درمان بالتعليق تاع حفيظ دراجي... هذه أمور تحدث"

عندما عُدتُ إلى الشّقّة يومها، فتحتُ يوتيوب، وشغّلتُ المباراة نفسها. أتذكّر عندما شاهدتُها على المباشر. شاهدتُ خمس دقائق،

لكني لم أشعر بشيء، أردتُ أن أبكي بسهولة مثل ذلك الشّابّ. كُنتُ وحدي في الشّقّة. لكنْ، لم يحدث شيء.

***

لم أكن جيّداً في الرّياضيّات عموماً، لكنّ أُمّي حرِصت على أن أحفظ جدول الضرب، ومنذ ذلك اليوم لم أنسه. لذلك عندما عجزَ زكي وليلى عن حساب بعض النفقات، وتحويلها من الدينار إلى الأورو، ونحن على الطريق إلى بومرداس، أعطيتُهما الحاصِلَ قبل أن تفتح ليلى الآلة الحاسبة في هاتفها.

الخروجُ من الرغاية والذهاب إلى بومرداس هو سباحةٌ ضدّ التّيّار، فالطريق سالك، ولا حواجز فيه قبل مدخل بومرداس، وهو حاجز لا يُعطّل للجدارمية. بقيّةُ الطريق مفتوحة عكس نقيضها الذاهب إلى وسط العاصمة، حيثُ يصل الواحدُ إلى حدود العاصمة الشّرقيّة - الرغاية - ليجدَ حاجزاً ضخماً.

اليوم جميل، واتّفقتُ مع ليلى وزكي على أجرة يومي، سأعمل فيكسور أيضاً، وأقودهم إلى شاطئ روشي بوري(*). لم أعمل مع زكي منذ مدّة، خمس أو أربع سنوات. وها أنا أتبعُهُ ببساطة، كما فعلتُ منذ أوّل يوم. شعورٌ جميل أن تسير السّيّارة دون أن تتوقّف أو تنتظر في سلسلة طويلة للمرور أمام عساكر وجدارمية حذرين. وصلْنا بومرداس مع منتصف النهار.

تنظر آن عبر النافذة، الكاميرا مرتاحةٌ فوق حجرها، زكي صامت، يُركِّز في السياقة، وليلى تقوم بشيء على هاتفها. بومرداس مدينةٌ مفتوحة،

---

*) الصخرة العَفِنَة.

طُرُقاتها وأرصفتها واسعة، وكل شوارعها تنحدرُ نحو البحر. سرْنا عبر حواجز الشرطة الصغيرة، اجترْنا المقاهي الجميلة التي تملك حدائق صغيرة، يحتلّها الطَّلَبَة، بنات وأولاد، عبرْنا بجانب محطّة القطار ووسط الأحياء التي شهِدت الزلزال، وصمدتْ أمامه. علَّقتْ آن على بعض الأماكن عند مرورنا بها، كانت قد جاءت وصوَّرتْ من السّيّارة، بسبب عدم قبول طلب التصوير من قِبَل الولاية. اقترحَ زكي أن نتوقّف ونشتري ماءً وشيئاً نأكله.

اخترْنا محلاً سوريّاً، لأنّ آن نباتية، واقترحَ زكي المكان، كي نشتري لها سندويتشات فلافل. بعد التفكير في الأمر لثوانٍ، اشتريتُ فلافل أنا أيضاً. نزلتُ مع زكي، تحدّثْنا قليلاً، شرحَ لي الفكرة والمشروع من وجهة نظره، وجدتُ أنّها الحكاية نفسها كل مرّة مع المركز الثّقافيّ الفرنسي، قادرين يجيبوا أيّ شخص أبيض يعمل أيّ شيء عن الجزائر، يضع زوج كلمات أو زوج صُوَر، ويَصنع معرضاً فنّيّاً. قال لي زكي إنّ آن ناس مْلاح، وكذلك ليلى-وعيبها الوحيد وهو أنّها تقدّم نفسها كخبيرة في كل ما يخصّ الجزائر رغم أنّها لم تبدأ بزيارة الجزائر سوى منذ أربع سنوات.

يعجبني زكي كيف يعطي رأيه في النّاس، دون نميمة أو تهاون، بحيادِية ودِقّة المِشرَط، يقول لكَ إنّ الشخص الفلاني ناس ملاح، وإنه يخدم معاه، ويكري له جزء من جُهده العضلي والتِّقْنِيَّة التي يُحسن استعمالها، لكنّه يختلف مع طرحه لموضوع أو فكرة مُعيّنة. باختصار، زكي يكري يَدَيْه ما يكريش مُخّه.

عُدْنا بالأكل والماء إلى السّيّارة، وانطلقْنا شرقاً نحو شاطئ روشي بوري.

***

بقيتُ صامتاً طيلة الطريق إلى الشاطئ. كان يوماً ربيعياً في ديسمبر. النافذة مفتوحة، تدخلُ أشعّةُ شمسٍ دافئة، وهواءٌ مُنعشٌ يُلامِسُ وجهي وشَعْري. أشعرُ أنّني داخل صوت النهر الكبير الذي أتخيّله في الليل، أكادُ أسمعُ صوت الماء يجري، ونحنُ وسطه وفوقه وتحته.

يومٌ رائعٌ ونحن هاربون من المدينة، وذاهبون إلى البحر. العمل جاء في وقته، رغم أنّي لا أُحبّ فكرة العمل كفيكسور. في بعض المرّات، هنالك مخاطرة كبيرة. أعرف صديقاً، عمل فيكسور مع صحفي أمريكي من Vice، جاء الجزائر كي يكتبَ تحقيقاً حول ماركة جديدة من الأقراص المهدّئة، اسمها ليريكا، ويسمّيها النّاس في الشارع الصاروخ. الصّحفيّ لم يقُم بشيء، كان جالساً في الفندق، وينتظر فقط. كذّابون كلهم، يُوهِمون رؤساء عملهم والنّاس في بلدانهم أنّهم يتوغّلون في مُدُن العالم الثالث. المهمّ، جاء إلى الجزائر، وعمل مع صديقي الذي وجد نفسه هو مَنْ يُدبِّر له المواعيد مع المتعاطين والمرُوِّجين، ووصل به الأمر إلى أن اشترى له عدداً من الحبوب، في الأسبوع الأخير، تمّ تفتيش صديقي في المترو صدفة، ووجدوا عنده مِشْطاً من الحبوب. راح للحبس. الصّحفيّ جمع أشياءه، وعاد إلى بلده، وكتب تحقيقاً طويلاً عريضاً عن الشباب الضائع في الجزائر، وختم المقال بزوج كلمات عن صديقي المحبوس. هذه أمور تحدث.

بعد الشواطئ ومراكز الاستجمام التي يملكها الجيش، في المخرج الشّرقيّ لبومرداس، هنالك طريق غير مُعبّد على اليسار، يمتدّ في انحناءات، تُحيط بها نبتات الصّبّار والقصب، وينتهي في موقف سيّارات ترابي مُرتَجْل، يُطلّ على الشاطئ.

الشاطئ مهجور، الصخرة العفنة في مكانها، وعلى الربوة المقابلة تمتَدّ أطلال الزلزال التي تخلّصت الولاية منها قبل أزيدَ من عشر سنوات

في هذا الشاطئ. نزلْنا في الطريق التّرابيّ الضَّيِّق نحو الشاطئ. الماء هائجٌ قليلاً وأزرق، تركتُ الجاكيت في السّيّارة، وتقدّمتُ مع آن التي وضعت قُبّعةً على رأسها. شرحتُ لها في كلمَتَيْن حكاية الأطلال التي كُنتُ سمعتُها من أصحابٍ لي. كانت كُتلُ الإسمنت والآجرّ لا تزال تحتفظُ بشيءٍ من الطلاء الخارجي والدّاخليّ للمساكن، أبيض وأزرق خاصّة، رغم سنوات من الرطوبة والشمس والمطر. تسمعُ منّي في هدوء، ثمّ تتقدّمُ، يتبعها زكي، نحو الجُرف المنحدر من تحت الأطلال، وهي تُعدّلُ شيئاً في كاميرتها. أنزعُ حذائي، وأمشي نحو الماء.

***

في الظهيرة تتّصلُ بي زينب، أجلسُ على الشاطئ، وأتشاركُ الأكل مع زكي وآن وليلى. تُخبرني أنّها ستقضي الليلة عند صاحبتها سناء. هناك مظاهرةٌ أغلقت الطريق هذا الصباح، وغداً عليها الالتحاق باكراً بأقسام الامتحانات، ولا تُريد المجازفة، ولا الاستيقاظ مع الفجر، كي تجد الطريق سالكة. أسمعها دون أن أنطق، أنفصلُ عن الجماعة، ويدوم صمتي وأنا أفكّر في المجازفات التي علينا القيام بها عندما نعيش خارج سور المدينة.

"راك تسمع؟"

"سمعتك ..."

"واه ... الطريق مبَلْعَة."

"أنا راني خدّام اليوم، بانتْ لي خدمة مع زكي."

"زكي !" تقول متعجّبة "وين؟"

"فيكسور ... بومرداس ... من بعد نحكي لك."

"أوكي ... بيزو"

أُنهي الاتّصال، وأستدير، فأجدُ أنيّ ابتعدتُ عنهم حوالي عشرين متراً، أنظر لزكي يتّكئ على ذراعه اليُسرى وهو ينظر إلى البحر، آن تأكل وليلى تحكي شيئاً، وتُمسك تُفّاحة في يدها، الأكل بينهم على حصيرة زرقاء، والبحر في الخلفية مثل امتدادٍ لا نهائي لتلك الحصيرة. أنظر إليهم، ولا تصلني أصواتهم بسبب صوتيَ البحر والريح. كأنّهم لوحةٌ أو مشهدٌ في فيلم. أفكّر في أوّل النصائح والمعلومات التي أخبرني بها زكي عندما بدأتُ العمل معه منذ سنوات:

"صعيب باش تحكمْ صوت البحر."

لم أفهَم في البداية، وحاولتُ تسجيل صوت البحر، لكنّي فشلتُ، كُنتُ أسمعُهُ واضحاً حين أسجِّلُ، ثمّ لا أجدهُ عندما أستمع للتسجيل؛ قلتُ لزكي إنّه يختلط بالرّيح، فقال لي إنيّ أحاول تسجيل صوت الموجة، وليس البحر، ولذلك أُخفق.

كُنّا وقتها نُصوِّرُ فيلماً بالقرب من شاطئ في بجاية، وفي المقهى المُطلّ على الشاطئ كانت هنالك قواقعُ كبيرة للزينة، أخذَ زكي واحدة كبيرة، ووضعها على أُذني، وقال:

"واش راك تسمع؟"

سمعتُ صوت شيءٍ قادمٍ من بعيد، كأنّه صوتُ انهيارٍ ثلجي أو صوت تشكُّل موجة كبيرة أو حتّى صوت الزلزال كما سمعتُهُ سنة 2003. قال لي زكي إنّ هذا ما يجب التقاطُهُ. صوت تشكُّل الموجة، صوتُ قدومها، صوتُ التيّار وحركة البحر.

تراجعتُ خُطوَتَيْن، والتقطتُ صورةً للغداء على الشاطئ.

***

"كوكِياج ...".

تُردّد ليلى هذه الكلمة، وتدور رافعةً ثوبها الغجري حتّى لا تجرّه على الرمل. تبحثُ عن الكوكِياج، القواقع، قواقعٌ كبيرة، كي تصنعَ منها منفضة سجائر. قالت إنّ هذا هو شُغلها الشاغل في الأشهر الأخيرة، صناعة منافض السجائر من أيّ شيء. واليوم قرّرتْ أنّها ستصنعها من القواقع.

آن تتحدّث مع زكي بخصوص الأطلال، ذَهَبَا شرقاً وغرباً، صعدا حتّى الأطلال، وراقبَا ضوء الشمس وحركة السُّحُب بَحْثاً عن ضوءٍ مُناسب. أخَذَتْ آن صُوراً من عدّة زوايا. بدأتُ أشعر بالملل، الساعة تجاوزت الرابعة. جمعتُ الفضلات في كيس بلاستيكي، قدّمتُ شروحاً، وطرحتُ أسئلة، سألتْني آن إذا ما كُنتُ أريد أن أقول شيئاً عن الزلزال، تجربتي مع الزلزال في 2003، أجبتُ: لا، ليس عندي ما أحكيه بهذا الخصوص.

تقدّمتْ منها ليلى لتُشاهد الصور، ورأيتُ زكي يذهب إلى السّيّارة، يُخرِج شيئاً من الصندوق الخلفي، ثمّ يسير في خطٍّ مُستقيم نحو الماء، كان يحمل المسجّل، يستعمل زكي ZOOM h5، عنده أكثر من جيلٍ من هذه الماركة، لكنّه يفضّل h5 أسودٌ وصغير في حجم راحة اليد. يُركّب عليه السّمّاعات، يقفُ حيث يموتُ زبدُ الأمواج، ينحني قليلاً نحو الأمام، ويمدُّ يده بحذرٍ نحو البحر، كأنّ البحر حيوانٌ سيُطعِمُهُ أو يمسح على رأسه، حيوانٌ ضخمٌ لا تسعُهُ العين، ويبتلع الأفق. ثمّ يبدأ في تحريك يده مُتابِعاً حركة الأمواج، كأنّه قرّر أخيراً أن يُنوِّم هذا الحيوان. يضعُ زكي يده الأخرى على السّمّاعات حول رأسه، وينتظر. رأيتُهُ في هذا

الوضع مئات المرّات، كلّما وجد نفسه أمام البحر، يُخرِج المُسجِّل، ويُجرِّبُ حظّه، يحاول الإمساك بصوت البحر.

***

تحضَّرْنا للعودة. كان الجوُّ قد تغيّر، اختفت الشمس تدريجياً، وبدأ البرد والرذاذ. سألتُهُ إذا ما كان قد أمسكه، فردّد مُبتسماً المَثَلَ نفسه الذي يقول إنّ جدّته كانت تستعمله:

"ربي يقول اسعى يا عبدي وأنا نعاونك ... من بعد نشوفو."

سرْنا عبر بومرداس، لم نتعطّل كثيراً، ثمّ دخلْنا الطريق السريعة، بعد بضع كيلومترات وجدْنا حادث سَيْر، وتوقّفْنا لمدّة أربعين دقيقة.

الملل والمطر أغرقا الطريق والسّيّارات، تحدّثْنا في كل شيء. تخيّلتُ آن تقوم بمشروع تصوير حول انسداد الطُّرُقات في الجزائر. بدأت السماء تُظلِم، النهار قصير، وسمعْنا في الراديو أنّ هنالك مظاهرة في مكان ما بين بومرداس والجزائر. مظاهرة إضافية ستجعل كل أفواج الجدارمية يخرجون إلى الطريق. أخرجتُ حبّات مندرين من الكيس، ووزّعتُها عليهم. ليلى كانت تركب بجانبي مشغولة بكتابة إيميلات على هاتفها الموصول بشاحن السّيّارة. نظرتْ نحوي، وسألتْني بُلطفٍ مُصطنع، إذا ما كُنتُ لا أمانع تقشير المندرين لها:

"نحبّها بصّح ما نحبش نقشّر." قالت بلهجة عرب باريس.

قشّرتُ لها المندرين، فأخذتْها فرحةً، ثمّ منحتْني قوقَعَتَيْن كبيرَتَيْن كهدية، فوضعتُهما في جيبي.

وصلْنا إلى الرغاية قُرابة الساعة السابعة ليلاً، تعطّلْنا مرّة أخرى في

الحاجز الأمني الشهير للبلدة، في حدود العاصمة، لكنْ، هذه المرّة اقترحتُ طريقاً مُختصراً. زكي لا يعرف هذه الطُّرُقات، شرق العاصمة، وكُنتُ أقوده طيلة النهار، وكُنتُ أردُّ له - بشكلٍ ما - جزءاً صغيراً من دَيْنِنَا القديم، عندما أرشدني قبل سنوات في خطواتي الأولى في أماكن التصوير أوّلاً (والحياةِ ثانياً)، وهو يُردّد عبارته الأثيرة يمينيك ... شَمَالْك ... ردّدتها اليوم من دون تكلّف عبر الشوارع الضَّيِّقة والمزدحمة للضاحية الشّرقيّة، واقترحتُ أن نذهب إلى الشّقّة، نبقى حتّى تصير الطريق سالِكة، ثمّ يُكمِلُ زكي معهنّ إلى وسط الجزائر. قلتُ إنّهم سيدخلون الرغاية كي يُنزلوني على كل حال. يُمكنهم استعمال الحمّام وأكل شيء والحصول على استراحة قصيرة. وافقَ الجميع، تجاوزْنا الحاجز، ودخلْنا الرغاية عبر المدخل الثاني، مدخل المنطقة الصّناعيّة، وبعد دقيقَتَيْن ركَن زكي سيّارته تحت نافذتي.

***

الظلام. الكهرباء مقطوعة. فتحتُ الباب تحت أضواء هواتفهم، أرشدتُهم للصالون الصغير عندما دخلْنا. توزّعوا على الأريكَتَيْن، ودخلتُ أنا المطبخ، لأضع الأكياس، وأبحث عن الشمع، وجدتُ شمعَتَيْن، ثمّ تذكّرتُ الشمع المُلوّن الذي تُزيِّنُ به زينب الطاولات الصغيرة في الصالون.

أشعلتُ الشمعَتَيْن، تركتُ واحدة في المطبخ، وأخذتُ الثانية للصالون، ثمّ طلبتُ من زكي أن يُشعِلُ بقيّة الشموع. أخذَ علبة الكبريت من يدي، وبدأ يُشعِلُ الشمع وهو يُدندِن:

شمعة وحدة ما تقسَّرْ ... ستّة سبعة يصبّحوا.

آن وليلى صامتتان. أرشدتُ الجميع لمكان التواليت، ثمّ عُدتُ

إلى المطبخ. عندي سلطة خُضر أخرجتُها من الثلاجة، وأفرغتُ فيها عُلبة تونة، ثمّ وضعتُ كلاً من الزيتون والكاممبير في صحنَيْن صغيرَيْن، وأشعلتُ كانون الفُرن لأشوي باذنجانة كبيرة. أسهل فكرةٍ لتصبير الجوع مع التدخين أو الشرب. وصلني تراقُص لهب الشموع في الصالون مثل انعكاس لحريقٍ بعيد. لم يأخذ الأمر أكثر من خمس دقائق لتجهز، نزعتُ عنها قشرتها، طحنتُها في صحنٍ مُستعيناً بالشوكة، ثمّ أضفتُ القليل من كريمةِ الثوم وثلاث ملاعق كبيرة من زيت الزيتون. دخلتْ ليلى المطبخ، وسألتْني إذا ما كُنتُ أريد مساعدةً في شيء، قُلت إنّ كل شيء حاضر. حملتْ معي أطباق الكَمْياتْ إلى الصالون. زكي كان قد بدأ في تدوير سجائره، ظننتُ أنّه يُدخّن تبغاً عادياً، لم أنتبه، ثمّ وصلتْني الرائحة.

مَسَحْنا الأطباق الصغيرة، وقشّرْنا ما تبقّى من مندرين، ثمّ شربْنا ماءً كثيراً، واسترخيْنا في جلستنا. أشعلَ زكي سيجارَتَيْن، أعطى الأولى لآن، وتبادلتُ مع ليلى الثانية. أخرجتُ القوقَعَتَيْن من جيبي، ووضعتُ واحدة أمام آن وزكي، واحتفظتُ بالثانية في يدي. مع النَّفَسِ الثاني شعرتُ بأنّ أشياء بدأتْ تنفتحُ أسفلَ رأسي، كانت شموع زينب قصيرةً، وتشتعلُ داخل كؤوس زجاجية ملوّنة، وواصلت أضواؤها الصغيرة الشاحبة التراقصَ على حيطان الصالون.

بعد نصف ساعة، كُنتُ قد ركبت بفعل الزطلة.

***

بقيْنا ساكتَيْن. زكي وحده مَنْ كان يلفُّ السجائر، ويُوزّعها عليَّ وعلى آن. مع السيجارة الثالثة وضعتْ ليلى رأسها على ساقي، وتمدّدتْ

على الأريكة. صِرْتُ أستلمُ السيجارة، وأُمرِّرُها لها. حدث الأمر بسلاسة. وضعتُ أصابعي في شَعْرها، وخبّلتُهُ بين أصابعي، كان بعض الرمل عالقاً بشَعْرها، لكنه كان ناعماً وطويلاً مثل الليل. دخَّنَّا السيجارة الأخيرة دون رغبة في إنهائها. أضواء الشموع الشاحبة بالكاد تصلُ إلى الوجه الذي أراه على بُعْد شبرَيْنِ من وجهي، وجهٌ أسمر دقيقُ الملامح، ثمّ الأنف! بقيتُ أنظرُ إلى الأنف. أغمضتُ عينَيّ، وفتحتُهُما. وفجأةً رأيتُ أنفَ زينب ووجهها. بقيتُ صامتاً. لم أسألها كيف وصلتْ. فكّرتُ في ليلى، أين اختفتْ؟ وكيف حلّتْ زينب مكانها؟ وضعتُ القوقعة بحذرٍ على بطنها، وقبل أن أرفع يدي، أمسكَتْها هي، وثبَّتَتْها فوق بطنها، وبدأتْ تُمَسِّدُ ظهرها ببطء. ثمّ امتدّتْ أصابعها إلى العروقِ النافرة على باطِنِ ذراعي. نظرتُ إلى وجهها مرّة أخرى، فرأيتُ ليلى تبتسم. كان وجه زينب قد اختفى. تراخَتْ جفوني، وشعرتُ أنّ قوقعةً كبيرة تنغلقُ علينا.

انتهت في ديسمبر 2018

كُتبَتْ قصصُ هذه المجموعة، على أوقاتٍ متفرّقةٍ، بين الجزائر وأمريكا

صلاح باديس

كاتب ومترجم وصحفي، مواليد مدينة الجزائر العاصمة، عام 1994.

صدر له في الشعر "ضجر البواخر" عن منشورات المتوسط 2016. وفي الترجمة رواية "عن إخواننا الجرحى - جوزيف أندراس"، 2018. ورواية "كونغو - إريك فويار"، 2019. شارك ككاتب مقيم في برنامج IWP بجامعة آيوا سيتي (الولايات المتحدة) حيث أنهى كتابة هذه المجموعة القصصية.

فهرس المحتويات

حاجة جديدة..... 7
القمرُ دبّوسٌ يُثبِّتُ ورقةَ الليلِ..... 17
القطاراتُ تغادرُ قبلَ الزلزالِ..... 31
الشركةُ الوطنيةُ لانتظارِ القطاراتِ..... 63
حتّى لا تسقطَ صورةُ كريم وتشي غيفارا مرّة أخرى..... 74
بيجو 505..... 89
قبلَ الزلزالِ..... 95
البحث عن بَلكون..... 103
هذه أمور تحدث..... 118

تمّ الأمر إذاً. أغلقتُ الجاكيت، ولبستْ سيليا معطفها الذي ظلّتْ أزاراه العلوية مفتوحة، بسبب حجم صدرها. سلَّمْنا على إيمان، وخرجْنا إلى الرواق الطويل. سيليا كانت تُغالب رأسها - وصدرها ربمّا - حتّى لا تسقط، كان يظهر عليها التعب أكثر من نسرين. رأيتُ الجزائر، مرّة أخرى، مثل الجمرة تحت البلكون العالي. أغلقتْ إيمان الباب، وانسحب الضوء. كانت نسرين تحمل معطفها في يدها، وعادت إلى ذهني مقولة «البنات ما بيردوش»، فكّرتُ في أني سأقضي الليلة مع فتاتَيْن، تعرّفتُ عليهما صدفة، لم أكن قد نمتُ مع فتاة من قبل. لم تتطوّر الأمور إلى هذا الحدّ من قبل، ولا أعلم إذا ما كان سيحصل شيء أم أني سأنام على الأريكة في الصالون. ربمّا كانت نسرين تسكن أستوديو، من دون صالون. غرفة واحدة. سرير واحد. أفكار عديدة عبرت رأسي، أردتُ التدخين بشدّة، مددتُ يدي نحو العلبة في جيبي، فوجدتُها فارغة. خَرَا. وقفتِ الفتاتان تنتظران المصعد، ووقفتُ أنظر مرّة أخيرة للمدينة، البحر كان واضحاً، أو ربمّا تخيّلتُهُ كذلك.

مكتبة نوميديا 161
Telegram@ Numidia_Library

ISBN 978-88-32201-18-5
9 788832 201185
المتوسط